رواية



فيليب روث

# الثدي



ترجمة: أسامة منزلجي

# الثدي





Author: **Philip Roth**

اسم المؤلف: فيليب روث

Title: **The Breast**

عنوان الكتاب: الثدي

Translated by: **Osama Menzlchi**

ترجمة: أسامة منزلجي

P.C.: **Al-Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2023**

الطبعة الأولى: 2023







**للإعلام والثقافة والفنون**

*Al-mada for media, culture and arts*

---

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 · +964 (0) 780 808 0800 · +964 (0) 790 1919 290

---

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 175 2617 · +961 706 15017 · +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 · +963 11 232 2275 · +963 11 232 2289

ص.ب: 8272

---

فيليب روث






# الثدي

ترجمة : أسامة منزلجي



## الإهداء

**إلى إليزابيث إيميس، المدير المُنفِّذ ليادو[1]**
**من عام 1924 إلى عام 1970،**
**في سيراتوغا سبرينغز، نيويورك،**
**أفضل صديق يمكن لكاتب أنْ يحظى به.**

---

1- معتزل يادو: منتجع مُخصَّص للفنانين والكتّاب لرعايتهم ورعاية إنتاجهم، ويقع في ساراتوغا سبرينغز، نيويورك. - المترجم

# فيليب روث

وُلِدَ فيليب روث في نيويورك عام 1933. نوفيللاه الأولى «وداعاً كولومبوس» الصادرة عام 1959، لفتَتْ أنظارَ النُّقاد إليه وحازت على جائزة الكتاب الوطني للرواية، يُعَدُّ أهمَّ روائيّ في أميركا حسب استطلاعات القُرّاء، يصفه النُّقَّاد بأنه امتدادٌ لوليم فوكنر ولسكوت فيتزجيرالد صاحب غاتسبي العظيم... حصل على 19 جائزة أدبيّة، أشهرُها بوليتزر ومان بوكر الدولية، وثلاثَ مرّات جائزة فوكنر، يُعَدُّ واحداً من أهمّ أربعة كُتّاب في تاريخ الأدب الأميركي إلى جانب وليام فوكنر وسول بيلو وجون أبدايك.

فاز فيليب روث عام 1997 بجائزة بوليتزر عن روايته American Pastoral (الكاهن الأمريكي). تسلَّم روث عام 1998 ميدالية الفنون الوطنية في البيت الأبيض. وفي عام 2002 تلقَّى أعلى جائزة من الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب والميدالية الذهبيّة في الآداب التي مُنحت سابقاً لكلٍّ من جون دوس باسوس وويليام فوكنر وسول بيلو من بين آخرين. فازَ مرَّتَين بجائزة الكتاب الوطنية وجائزة بين/ فوكنر وجائزة حلقة نُقّاد الكتب الوطنية. في عام 2005 تلقى عن روايته The Plot Against America (المؤامرة على أمريكا) جائزة جمعية المؤرِّخين الأمريكيين على «هذه الرواية التاريخية المُذهلة ذات الثيمة الأمريكية بين 2003-2004»، وجائزة دبليو. إتش. سميث لأفضل كتاب سنوي وهذا بدوره حوّل روث إلى أول كاتب يربح الجائزة مرتين في تاريخ الجائزة البالغ ستة وأربعين عاماً.

في عام 2005 أصبح روث ثالث كاتب أمريكي على قيد الحياة مِمَّن نَشرت لهم مكتبة أمريكا أعمالَهم في مجلَّدات شاملة وكاملة. تلقَّى عام

2011 ميدالية العلوم الإنسانية الوطنية في البيت الأبيض وتمَّت تسميتُه لاحقاً ليكون المُتلقِّي الرابع لجائزة مان بوكر العالمية. في عام 2012 حظي بأكبر تكريم إسباني «جائزة الأمير أسترياس» وفي عام 2013 تلقَّى أكبر تكريم فرنسي Commander of the Legion of Honor. توفّي فيليب روث عام 2018.

بدأ الأمر بطريقة غريبة. ولكن هل كان في الإمكان أنْ يبدأ بصورة مُغايرة، كيفما بدأ؟ وقد قيل، طبعاً، إنَّ كل شيء تحت الشمس يبدأ بصورة غريبة وينتهي بصورة غريبة، *وهو نفسه* شيء غريب. فالوردة المثاليّة هي «شيء غريب»، وكذلك الأمر الوردة التي بها عيب، وكذلك الأمر الوردة الجميلة العاديّة التي تنمو في حديقة جارك. أعرفُ المنظور الذي يبدو منه كل كائن رائعاً وغامضاً. تأمّل في الأبديّة، وفكِّر، إن استطعتَ، في النسيان، وسوف يُصبح كل شيء عجيبة من العجائب. ومع ذلك، سوف أُسلِّم معك، بكل تواضُع، بأنَّ بعض الأشياء أكثر عجائبيّة من غيرها، وبأنني أحد تلك الأشياء.

إذن بدأ بصورة غريبة – بوخزٍ متقطِّع، معتدل، في ملتقى الفخذين. وخلال ذلك الأسبوع كنتُ ألجأ مرّات عِدّة في اليوم إلى المرحاض المجاور لغرفة مكتبي في مبنى قسم العلوم الإنسانيّة لكي أُنزِل بنطلوني، ولكن بعد تفحّص نفسي بدقّة، لم أرَ أيّ شيء غير عادي. وقرّرتُ، بلا كثير من الحماس، أنْ أتجاهله. ولطالما كنتُ مولعاً بمنطقة أسفل البطن، ويقظاً لكل تغيير يطرأ على درجة حرارة جسمي وعلى انتظام عمل الجسم، إلى درجة أنَّ الرجل العاقل الذي هو أنا أيضاً أصبحَ منذ زمن طويل يجد من المستحيل عليه أنْ يتعامل بجديّة مع كل الأعراض التي أشعر بها. وعلى الرغم من الهواجس المقيتة حول الفناء أو الشلل أو الألم الذي لا يُطاق الذي يُصاحب كل ألم جديد أو حُمّى، كنتُ، وأنا في عمر الثامنة والثلاثين، رجلاً قوياً وذا شهيّة مفتوحة، طوله ستة أقدام وذا طلعة بهيّة وتقاطيع جسم متناسقة، وأحتفظ بمُعظم شَعري وبأسناني كلّها، ولم أُصَب في حياتي بأي مرض خطير. ومع ذلك قد أكون مندفعاً في نسب سبب هذا الوخز في منطقة أسفل البطن إلى

مرضٍ عصبيّ في منظومة داء المَنْطِقة[1] -إذا لم يكن أسوأ- وفي الوقت نفسه فهمتُ أنّه، بلا أدنى شك، وكما يحدث دائماً، لا شيء يستحق الذِكر.

وكنتُ مُخطئاً. لقد كان خطيراً. ومرَّ أسبوع آخر قبل أنْ أتبيَّن احمراراً بالكاد يُرى في الجلد تحت شعر العانة، تشوّهاً شاحباً، إلى درجة أنني أمرتُ نفسي بالكفّ عن النظر إليه؛ لم يكن أكثر من تهيّج بسيط وحتماً لا شيء يستحق القلق بشأنه. وبعد مرور أسبوع آخر -شكَّلَ، على سبيل التسجيل، فترة حضانة المرض التي تبلغ واحداً وعشرين يوماً- ألقيتُ ذات أُمسية نظرة إلى أسفل وأنا أقف تحت الدشّ واكتشفتُ أنّه خلال يوم محموم من التدريس والتشاورات وتبادل الآراء وتناول وجبات العشاء، تحوّلَ اللحم في قاعدة قضيبي إلى الاحمرار الشاحب. وسرعان ما قرّرتُ أنَّ السبب يعود إلى احمرار منشأه السروال الداخليّ. (وكون السروال الداخلي الذي عند قدميّ بلون الأزرق الخفيف لم يعنِ أي شيء وسط ذلك التفجُّر المُفاجئ الموسوم بالرعب من عدم التصديق). بدوتُ *مُلطّخاً*، وكأنَّ شيئاً -ثمرة علّيق أو ما شابه- سُحِقَتْ على شعر العانة وسال عصيرها على طول عضوي، صابغاً بلا انتظام الجذر.

تحت الدشّ نظّفتُ قضيبي وشعر العانة بالصابون وشطفتهما ثلاث مرّات، ثم غطّيتُ نفسي بعناية بدءاً بالفخذين وحتى السرّة بطبقة سميكة من رغوة الصابون واستمررتُ بتدليكها على لحمي بعض الوقت؛ وبعد أنْ شطفتها بالماء الساخن -بل الحارّ الحارق هذه المرَّة- بقيتْ اللطخة حيث كانت. لم تكن طفحاً، ولا جَرَباً، ليست رضّاً ولا تقرّحاً، بل خضاباً غامق اللون متغيّراً ربطْتُه في الحال بمرض السرطان.

لم يكن الوقت قد تجاوز منتصف الليل، الوقت الذي تحْدثُ فيه التحولات بشكل روتينيّ في قصص الرعب - والساعة التي من الصعب عندها الحصول على طبيب في نيويورك. ومع ذلك، قمتُ في الحال بالاتّصال هاتفيّاً بطبيبي الشخصيّ، الدكتور غوردون، وعلى الرغم من محاولتي إخفاء إحساسي بالرعب، سمعَ الخوف بسهولة كافية وتطوَّعَ

1- داء المنطقة: مرض يُصيب الكتلة العصبيّة. - المترجم

بارتداء ملابسه وقطع مسافة المدينة لكي يقوم بتفحّصي. ربما لو كانت كلير معي في تلك الليلة بدل أنْ تكون في شقّتها الخاصّة تضع تقرير لجنة المنهاج الدراسي، لتغلَّبتُ على رعبي وطلبتُ من الطبيب أنْ يأتي على جناح السرعة. وطبعاً اعتماداً على أساس الأعراض التي ظهرتْ عليّ في تلك الساعة كان من المُستبعَد أنْ يهرع بي الدكتور غوردون في التوّ واللحظة إلى المستشفى، ولا يبدو مما نعرفه الآن -أو نستمر في جهله- هو أنّ كل شيء كان يمكن فعله في المستشفى من أجل منع أو إيقاف ما كان يحدث. وربما كان يمكن تخفيف الألم الذي كابدتُه طوال الساعات الأربع التالية بتعاطي المورفين، ولكن لا شيء يدل على أنَّه كان يمكن عكس مسار الكارثة بأي إجراء طبّيّ خلاف القتل الرحيم.

لو كانت كلير إلى جانبي لتمكّنتُ من الانهيار تماماً، ولكن وأنا وحدي شعرتُ فجأة بالخجل من فقدان السيطرة؛ لم تكن قد مرّتْ أكثر من خمس دقائق منذ أنْ اكتشفتُ اللطخة، وها أنذا، مُبلّل وعار على الأريكة الجلديّة، أحاولُ عبثاً أنْ أتغلَّب على الارتعاش الذي شاب صوتي وأنا أنظر إلى أسفل وأصِف عبر الهاتف ما أرى. قلتُ في نفسي، ***تماسك*** -وتماسكتُ وأنا أقول هذا لنفسي قدر استطاعتي. إنْ كان الوضع كما خشيتُ أنْ يكون يستطيع أنْ ينتظر حتى الصباح؛ وإذا لم يكن كذلك، أستطيع أيضاً أنْ أنتظر. قلتُ للطبيب، سوف أكون بخير. وأجفلتُ، لأنني كنتُ مُرهقاً بعد يوم عمل شاقّ. سوف أراه في عيادته عند حوالي الظهيرة- رأيتُ أنَّ هذه جرأة مني. قال، في الساعة التاسعة. واتّفقنا، وتمنّيتُ له ليلة هانئة، بأكبر قدر من الهدوء.

ولم أتذكّر، إلّا بعد أنْ أنهيتُ المكالمة وتفحّصت نفسي مرة أخرى تحت ضوء ساطع، أنَّ هناك عَرَضاً آخر -بالإضافة إلى الوخز الذي شعرت به في ملتقى فخذيّ، والقضيب الذي استحال لونه- لم أذكُره للطبيب؛ كنتُ قد اعتبرته حتى ذلك الحين دلالة على تمام الصحة وليس على المرض. وهو الإحساس الموضعي الشديد الذي انتابني عندما مارستُ الجنس مع كلير خلال فترة الأسابيع الثلاثة السابقة. بالنسبة إليّ كان دلالة على انتعاش رغبتي القديمة فيها؛ لم أحاول أنْ أستفهم عن منشأ ذلك أو سببه. لأنَّ فرحي -وارتياحي- باستعادتها كان شديداً. والشبق القويّ الذي أثاره فيَّ جمال

جسدها خلال العامَين الأوّلين من علاقتنا كان يتراخى خلال العام الأخير. وكان في استطاعتي، حتى وقت قريب، أنْ أمارس الجنس معها على الأقلّ مرتين أو ثلاث مرات في الشهر، وغالباً ما كان يحدث ذلك بتحريضٍ منها.

كان هدوء شهوتي -برودي- مصدر أسى لكلينا، ولكن لمّا كنا معاً قد تحمّلنا ما يكفي من الاضطراب العاطفيّ في حياتنا (هي خلال فترة طفولتها مع أبويها، وأنا في سن الرشد مع زوجتي)، كنا معاً متردّدين على قدم المُساواة في اتّخاذ أية خطوة باتجاه فصم علاقتنا. على الرغم من أنّه كان من المُحبِط حتماً بالنسبة إلى امرأة شابة جميلة وشهوانيّة في الخامسة والعشرين أنْ تُرفَض ليلةً بعد أخرى، إلّا أنَّ كلير لم تُبدِ ظاهرياً أية دلالة على الإحساس بالإحباط أو بالغضب يمكن حتى لي أنا نفسي أنْ أجد له تبريراً، ويكون مصدر تعاستها. نعم، لقد دفعتْ ثمن اتّزانها -إنها ليست أشدّ مَنْ عرفتُ من النساء قُدرة على التعبير عن نفسها، على الرغم من كل ما تتمتع به من شبق جنسيّ- لكنني وصلتُ إلى مرحلةٍ من حياتي -أقصد كنتُ قد وصلتُ- أصبح المرفأ الهادئ والمياه رائقة عندها يُلائمانني أكثر من الهيجان المُزبِد للبحار العالية. طبعاً مررتُ بأوقاتٍ -عندما أخرجُ بمُصاحبتها أو أكون وحدي لتناول وجبة العشاء- تمنّيتُ خلالها أنْ تبدو أكثر حيويّة وقُدرة على الاستجابة، لكنني كنتُ شديد الارتياح لرزانتها الجديرة بالثقة بحيث لم يخب أملي فيها لافتقارها إلى الحيويّة. كنتُ أتحلّى بما يكفي من الحيويّة مع زوجتي.

في الحقيقة، على مدى ثلاث سنوات، نجحنا كلير وأنا في العيش معاً -ثم العيش منفصلين- يستمدّ كلٌ منا من حب الآخر الدفء والأمان، من دون أنْ يصحب ذلك التواكل، أو الضجر الساحق، أو الشوق الجامح والمُشوَّش، أو استراتيجيّات الخِداع والاسترضاء المتواصلة التي بدا أنها تُفسِد كل الزيجات التي عرفناها ما عدا القليل منها. وقبل عام أنهيتُ خمسة أعوام من التحليل النفسيّ مُقتنعاً بأنَّ الجِراح التي تخلّفتْ عن زواجي الفظيع قد برؤتْ تماماً، ويعود السبب في جزء كبير من ذلك إلى حياتي مع كلير. لعلّي لم أعد الرجل الذي كنتُه في السابق، لكنني لم أعُد أيضاً الجندي النازف، المُلفَّع بالضمادات ويقرع طبل رثاء الذات ويعرج والدموع في عينيه ليدخل عيادة الطبيب المُحلِّل النفسيّ عائداً من ساحة المعركة المعروفة

باسم الموقد والمنزل. كانت الحياة قد انتظمتْ وترسّختْ - وهي المرَّة الأولى التي استطعتُ فيها أنْ أقول ذلك منذ عقدٍ من الزمان. وسارت حياتنا حقاً بسهولة ويُسر، وضمر كلٌ منا إعجاباً شديداً بالآخر حتى بدا لي أنَّ ما يُشبه الكارثة قد وقع (وما أعرفه عن الكوارث قليل) عندما بدأتُ فجأة وبلا مقدمات لا أستمدّ أيّة متعة من المُضاجعة. كان ذلك تطوراً مُحبِطاً ومُحيِّراً، وبذلتُ أقصى جهدي، لكنني لم أتمكن من تغيير الوضع. في الحقيقة، كنتُ قد قرّرتُ أنْ أقوم بزيارة طبيبي المُحلِّل السابق لكي نتحدث عن مدى الاضطراب الذي يُسبّبه ذلك لي، عندما بدأتُ فجأة أُصبح شغوفاً بها كما لم يحدث لي مع أيّة امرأة أخرى.

لكنَّ كلمة «شغف» ليست دقيقة: إنَّ الطفل الوليد وهو في المزود لا يشعر بالشغف بابتهاجه عندما يقومُ أحدهم بمداعبة ذقنه عابثاً. أنا أتحدث عن البهجة الحسيّة الصِرفة -إنَّ مكمن الجنس ليس في الرأس ولا في القلب، بل يكمن إلى أقصى مدى في ملمس القضيب، الجنس يتعلَّق بالسطح وبالنشوة. كان نوعاً من المتعة تدفعني إلى ليّ أغطية السرير والتشبّث بها، والتقلُّب في السرير والتخبّط باستسلامٍ عاجز كنتُ قبل ذلك أُرجعه أكثر إلى النساء وليس إلى الرجال- إلى نساءٍ وهميات ولسن حقيقيّات. وخلال الأسبوع الختامي من دور حضانة مرضي، كدتُ أذرف دموعاً **حقيقيّة** من مجرّد متعة الاحتكاك الملتوية وحدها. وعندما قذفتُ وضعتُ فمي على أذنها ولعقتها كما يفعل الكلب. لعقتُ شعرها. وجدتُ نفسي ألهث، وألعق كتفيّ أنا. لقد نجوتُ! ونجت حياتي! بعد أنْ أمضيتُ ما يُقارب العام وأنا أستلقي لا مبالياً إلى جوارها، وبدأتُ أتوقَّع الأسوأ لمستقبلنا، عثرتُ بطريقة ما -طريقة غامضة ومُباركة!- على سبيلي إلى بلوغ عالم الإحساس الجنسيّ البدائيّ، والنقيّ، الذي وحده يستطيع أنْ يُقوّي الرباط الذي يجمعنا. سألتُ صديقتي السعيدة التي تحمل بشرتها الشاحبة آثار أسناني: «أهذا ما يُسمّى بالفسق؟ إنّه لا يشبه أي شيء أعرفه». اكتفَتْ بالابتسام، وأغمضَتْ عينيها لكي تحوم أكثر قليلاً. كان شَعرها قد أضحى رفيعاً بتأثير التعرّق، كفتاة صغيرة لعبت مُطوّلاً وسط الحرّ. كلير المُستمتعة، التي تمنح المتعة. وديفيد المحظوظ. ما كان يمكن أنْ نكون أشدّ سعادة.

أمرٌ مؤسِف. إنَّ ما حدث لي لم يعرفه *أي شخص*: إنّه يتجاوز الفهم، ويتجاوز الحنوّ، ويتجاوز المهزلة. والحقيقة، هناك مَنْ يدّعون أنهم وصلوا إلى شفا تفسيرٍ عِلميّ حاسِم؛ وهناك زوّاري المخلصون، الذين لا حدود لحنوّهم؛ وهناك الذين يظهرون فجأة -ولِم لا يظهرون؟- ولا يسعهم إلّا أنْ يضحكوا. وكما تعلم، أحياناً أصبحُ واحداً منهم: أفهمُ، أشعرُ بالحنوّ، وأنا أيضاً أفهم النكتة. أما الاستمتاع بها فأمر آخر. ليت كان في وسعي أنْ أُطيل أمد الضحك أكثر قليلاً – ليته لم يكن قصير الأمد وينطوي على مرارة. ولكن ربما المزيد من الضحك هو ما كان ينبغي أنْ أصبو إليه، إذا استطاع الأطباء أنْ يُطيلوا حياتي وأنا في هذه الحالة، وإذا استمررتُ في الرغبة في أنْ يفعلوا.

***

أنا ثدي. ظاهرةٌ سمعتُ أوصافاً متنوّعة لها على غرار «هو دفق هرموني كثيف»، و«كارثة اضطراب في الغدد الصمّاء» وأيضاً/ أو «انفجار خنثويّ في الصبغيات» حدث داخل جسمي بين منتصف الليل والساعة الرابعة صباحاً في الثامن عشر من شهر شباط، عام 1971، وحوّلني إلى غدّة كائن من الثدييات مفصولة عن أي شكل إنسانيّ، غدّة كائن من الثدييات يمكن أنْ يُثير شكلها في مخيّلة المرء إحدى لوحات دالي. قالوا لي إنني الآن كائن حيّ يُشبه في شكله العامّ كرة القدم، أو منطاداً بمُحرِّك؛ قيل لي إنَّ قوامي إسفنجيّ، وأزنُ مائة وخمسة وخمسين رطلاً (في السابق كنتُ أزنُ مائة واثنين وستين)، وما زال طولي ستة أقدام. وعلى الرغم من أنني ما زلتُ أحتفظ، وأنا بشكلي المتضرِّر «وغير المُنتَظم»، بالكثير من الأجهزة العصبيّة المركزيّة في الأوعية الدمويّة، وبجهاز تبرّز يوصَف بأنّه «مُختَزَل وبدائيّ»، وبجهازِ تنفّسٍ ينتهي فوق الجزء الأوسط مني بشيءٍ يُشبه السُرَّة ذات لسان، والهندسة الأساسيّة المشوّشة والمدفونة لهذه المواصفات الإنسانيّة هي ثدي أُنثى لكائن من الثدييات.

إنَّ كامل وزني هو نسيج دُهنيّ. إنني مُدوَّر في أحد جانبيّ كثمرة بطيخ، والجانب الآخر ينتهي بحَلَمَة، شكلها أسطوانيّ، تبرز بمقدار خمس بوصات عن «الجسد» وطرفها مثقوب بسبع عشرة فتحة، كل منها يبلغ نصف حجم

مجرى البول عند الذكر. وهذه هي ثقوب المجاري اللبنيّة. وحسب فهمي لها من دون الاستعانة بالرسوم البيانيّة -إذ ليس لديّ عيون- فإنَّ تشعّب المجاري داخل الفصوص المؤلّفة مما يشبه الخلايا التي تفرز الحليب الذي يخرج إلى سطح الحلمة العاديّة عندما يُمصّ، أو يُحلَب بوساطة آلة.

إنَّ لحمي أملس و«غضّ»، وما زلتُ «قوقازيّاً». لون حلمتي ورديّ. وهذه الصِفة الأخيرة تُعتبَر غريبة لأنني في تجسّدي السابق كان لوني أسمر غامقاً. وكما قلتُ لاختصاصيّ الغُدد الصمّاء الذي أدلى بهذه المُلاحظة، إنني لا أجد الأمر أشدّ غرابة من جوانب أخرى مُعيَّنة من التحوُّل، لكنني لستُ اختصاصيّ الغدد الصمّاء هنا. إنّه الذكاء الممزوج بالمرارة، لكنّه ذكاء في نهاية المطاف، ولابد أنّه شوهِد ولوحظ.

حلمتي لونها ورديّ -كاللطخة التي ظهرتْ على قاعدة قضيبي في الليلة التي حدث هذا كلّه لي. وبما أنَّ ثقوب الحلمة تزوّدني بشيء أشبه بفم وبأثر أذنين- على الأقلّ بدا لي أنني قادر على جعل الآخرين يسمعونني من خلال حلمتيّ، أيضاً بصوت خافت، أنْ يسمعوا من خلالهما ما يجري من حولي -افترضتُ أنَّ حلمتي حلّتْ محل رأسي. لكنَّ الأطباء توصّلوا إلى نتيجةٍ مُغايرة، على الأقل فيما يتعلَّق بهذا الشهر. أولاً، على الرغم من خفوت صوتي، المُنبعِث بوضوح من اللسان الذي على الجزء الأوسط، حتى وإنْ كان إحساسي بالمشهد الداخلي يستمر بعناد بربط الوظائف الأرقى للوعي بأعلى نقطة في الجسم. والأطباء يؤكدون الآن أنَّ البشرة القاسية والمُجعّدة للحَلمَة- يجب أنْ أعترف بأنَّها حسّاسة برهافة للَّمس أكثر من أيّ نسيج على الوجه، بما فيه غشاء الشفتين المُخاطيّ - تشكَّلتْ من حَشَفَة القضيب. ويُقال إنَّ الحَلَقَة المتغضّنة التي يميل لونها إلى الورديّ وتُحيط بالحَلَمة تشكّلتْ من جذع القضيب تحت انقضاض الإفراز البركانيّ من الغدَّة النخامية لدفق «الكائن الثديّ». امتدتْ شعرتان دقيقتان وطويلتان يميل لونهما إلى الأحمر من أحد الانتفاخات الصغيرة التي على حافّة حلقتي المُتغضّنة. «كم طولهما؟»

«سبعة إنشات بالضبط»

إنهما «هوائيّاي»: الشعور بالمرارة. وعدم التصديق. «هلّا شددت أحدهما، من فضلك؟»

«كما تشاء، يا ديفيد. سوف أشدّه برفق شديد»

لم يكن الدكتور يكذب، لقد شُدَّتْ إحدى شعراتي. ثمة إحساس مألوف جداً - في الحقيقة هو مألوف إلى درجة أنني وددتُ لو أموت.

طبعاً مرّت أيام عديدة بعد التغيير -«التغيير الأكبر»!- قبل حتى أنْ أستعيد وعيي، وبعد ذلك مرَّ أسبوع آخر قبل أنْ يُخبروني أيّ شيء آخر خلاف أنَّ «مرضي خطير» وأنني مُصاب «باختلال توازن في الغدّة الصمّاء». كنتُ كلما استيقظتُ أصرخ وأصيح بشدّة وأكتشف من جديد أنني عاجز عن الرؤية، والشمّ، والتذوّق أو التحرّك بحيث أُضطر إلى تلقّي مُهدِّئ قويّ. وعندما يلمس أحدهم «جسدي»، لا أعرف ما الذي يحدث؛ كان الإحساس مُهدِّئاً بصورة غير متوقّعة، ولكن من مسافة بعيدة جداً، ذكّرني بخرير المياه على الشاطئ. وفي صباح أحد الأيام استيقظتُ مع شعور جديد في أطرافي. ليس ألماً -بل أقرب إلى الاستمتاع- ولكن كان إحساساً غريباً إلى درجة أنني صرختُ، «لقد احترقتُ! إنني أشتعل بالنار!»

قالت امرأة «اهدأ، سيد كيبيش. إنني فقط أُحمِّمكَ. أنا فقط أغسل وجهك»

«وجهي؟ أين هو! أين ذراعاي! وساقاي! أين فمي! *ماذا ألَمَّ بي*؟»

هنا تكلَّم الدكتور غوردون. «أنت في مستشفى لينكس هيل، يا ديفيد. في غرفة خاصّة في الطابق السابع. أنت هنا منذ عشرة أيام. وأنا أعودك في صباح ومساء كل يوم. إنك تتلقّى عناية فائقة وكل ما تحتاج إليه من رعاية. وحاليّاً أنت فقط تُغسَل بالإسفنجة وبعض الماء الدافئ المُشبَّع بالصابون. هذا كل شيء. فهل هذا يؤلِمك؟»

قلت مع أنين «كلا، ولكن أين وجهي؟»

«فقط دع الممرضة تغسلك، وبعد ذلك سوف نتمشّى قليلاً في وقت لاحق من الصباح. يجب أنْ تحظى بكل الراحة المكنة»

«ماذا ألَمَّ بي؟». استطعتُ أنْ أتذكَّر الألم والرعب، ولكن لا أكثر؛

شعرتُ كما لو أنني قُذِفتُ من مدفع مراتٍ عِدَّة إلى جدار من القرميد، ثم داسني جيشٌ من الأحذية العسكريّة. في الواقع كان الأمر أقرب شَبَهاً بكوني مصنوعاً من قطعة حلوى قاسية، مطّها قضيبي ومؤخّرتي في الاتجاهات المقابلة إلى أنْ أصبحتُ عريضاً بمقدار طول قامتي. وقال لي الأطباء إنّه لم يكن في استطاعتي أنْ أستعيد وعيي لأكثر من بضع دقائق حالما بدأت «الكارثة»، ولكن عندما أستعيد ما جرى، يبدو لي أنني كنتُ يقظاً وشعرتُ كأنَّ كل عَظمة في جسمي مكسورة ومسحوقة سحقاً ناعماً.

«ليتك تسترخي الآن –»

«كيف تُطعمونني!»

«عن طريق الأوردة. لا تقلق. إنكَ تحصل على كل ما تحتاج إليه»

«أين ذراعاي!»

«فقط دع الممرضة تغسلك، ومن ثم سوف تدعك جسمك ببعض المرهم، وسوف تشعر بتحسّن أكبر. وبعد ذلك تستطيع أنْ تنام»

كنتُ أستيقظ هكذا في صباح كل يوم، ولكنْ مرَّ أسبوع آخر أو أكثر قبل أنْ أهدأ بالقدر الكافي –أو أتخدَّر– لكي أنغمس في أحاسيس الاغتسال بإثارة جنسيّة. حينئذٍ كنتُ قد استنتجتُ أنني مبتور الأطراف الأربعة –أنَّ المرجل انفجر تحت غرفة النوم في شقتي التي يتألَّف طابقها الأول من صالون، وأنّني أُصِبتُ بالعمى وبُتِرَتْ أطرافي جرّاء الانفجار. وكنتُ أجهشُ بالبكاء باستمرار تقريباً، ولا أولي أيّة ثقة للتأويلات الهورمونيّة التي افترَض الدكتور غوردون وزملاؤه أنها أسباب «مرضي». وفي صباح أحد الأيام شعرتُ، وقد استُنزِفتُ وأُصِبتُ بالخدر بعد أيامٍ طويلة من بكاء بلا دموع، شعرتُ بالإثارة الجنسيّة– بخفقان معتدل في منطقةٍ مُجاورة لِما كان لا يزال يُعتبَر وجهي، بإحساس ممتع بـ... الالتهام.

«أيُعجبك هذا؟» كان صوت رجل! صوت شخص غريب!

«*مَنْ أنت؟ أين أنا؟ ماذا يجري؟* »

«أنا ممرِّض»

«أين المُمرّضة الأخرى!»

«نحن في يوم الأحد. هدِّئ من روعك - إنه فقط يوم عطلة»

في صباح اليوم التالي عادتْ الممرّضة المعتادة، مسّ كلارك، إلى عملها، وقامت بغسلي تحت إشراف الدكتور غوردون، وهذه المرّة، عندما بدأتُ أشعر بأحاسيس ترافق العبث الجنسيّ، تركتهما يفعلان بي ما يشاءان. همستُ «أوه، هذا إحساس ممتع»

سأل الدكتور غوردون «ماذا؟ ماذا تقول للمُمرّضة، يا ديفيد؟»

بدأتْ تدلّكني بالمرهم، واستطعتُ أنْ أشعر بكل إصبع من أصابعها تدعك ذلك الوجه الذي لم يعُد وجهاً. ثم بدأ شيءٌ ما يخِزني، شيء سرعان ما أدركتُ أنّه ليس إلّا راحة كفّها الطريّة تتحرّك ببطء مُداعبة على شكل دوائر ذلك الوجه الذي ليس وجهاً. كان كياني كلّه يهتاج بذلك الإحساس المُرهَف بوقوع حدثٍ وشيك يلي الولوج المثاليّ. «أوه، يا الله، هذا شيء رائع جداً»، ثم طفقتُ أجهشُ بالبكاء المتواصل حتى إنّهم اضطروا إلى إعادتي إلى النوم.

بعد ذلك بقليل، عاد الدكتور غوردون مع الدكتور كلينغر الذي كان طوال خمسة أعوام طبيبي النفسي الخاصّ، وأخبراني عن الحالة التي وصلتُ إليها.

كانوا يغسلونني برفق ولكن غسلاً شاملاً في صباح كل يوم ومن ثم يضعون المرهم ويدلّكونني. وبعد أنْ سمعت حقيقة حالتي -بعد أنْ علِمتُ أنني أعيش الآن فوق أرجوحة شبكيّة، بحلمتي على أحد طرفيها والجانب السفليّ المُدوَّر، على شكل بطن، على الطرف الآخر، بطقما فرس من المخمل تُثبّتاني في مكاني- مرّتْ عدّة أشهر قبل أنْ أتمكّن من الشعور بأقلّ استمتاع بعمليات الغسل الصباحيّة تلك. وحتى عندئذٍ لم أستطع أنْ أستسلم من جديد بالكامل لأصابع المس كلارك المُدلّكة إلّا بعد أنْ وافق الدكتور غوردون على تركي وحدي في الغرفة مع الممرضة. ولكن عندما انفردتُ بها أصبح الخفقان يكاد يفوق التحمُّل، «يكاد» بصورة لذيذة - كهذيان يشبه ما عرفته خلال تلك الأسابيع من مُضاجعة كلير، ولكنه بدا أشدّ تطرّفاً لأني أستعيد ذِكراه وأنا في حالة من العجز التامّ، وبلا مُقدمات، ومن ذلك

المصدر المُكرَّس حصراً لقدح إثارتي. وبعد انتهاء الجلسة وخروج مس كلارك من الغرفة مع حوض الماء الدافئ وزجاجة المرهم (تخيّلت زجاجة ملوّنة)، تهادتْ أرجوحتي بصورة مُريحة جيئة وذهاباً، إلى أنْ توقّف جيشاني أخيراً، ورقّتْ حلمتي، واستغرقتُ في نوم المُتخَم.

قلت إنَّ الطبيب وافق على تركي وحدي في الغرفة. ولكن كيف لي أنْ أعرف أنَّ أحداً تركني وحدي، أو إنْ كانت هذه غرفة؟ لقد أكَّدَ الطبيب لي أنني لا أخضع للإشراف أكثر من أيّة حالة صعبة أخرى -إنني لستُ معروضاً على خشبة مسرح طبّيّ، ولا على تلفزيون دارة مُغلقة... ولكن ما الذي يمنعه من الكذب؟ إنني أشكّ في أنَّ ثمة مَنْ يتقصّى ممارستي لحقوقي المدنيّة وسط هذه الكارثة. **سوف يكون** ذلك مثاراً للضحك. ثم لماذا أهتمّ أصلاً إنْ كنتُ وحدي في حين أنّي أعتقد أنني كذلك؟ وحتى لو أنّني تحت قبّة من الزجاج المُضاد لاختراق الصوت على منصّةٍ في وسط ساحة ماديسون سكوير غاردن، لو أنني معروض في واجهة محل ميسي- فما الفرق بالنسبة إليّ؟ أينما وضعوني، ومهما كان عدد الذين ينظرون إليّ، فإنني وحدي تماماً كما يُمكن لأي شخص أنْ يتمنّى أنْ يكون. من الأفضل أنْ أتوقف عن التفكير في «كرامتي» بغضّ النظر عمّا كان ذلك كلّه يعني بالنسبة إليّ عندما كنتُ بروفسوراً في الأدب، وعاشقاً، وابناً، وصديقاً، وجاراً، وزبوناً عادياً، وزبوناً مواظباً، ومواطناً. لو توفّرَ وقتٌ لنسيان اللياقة، والذوق، والكبرياء الشخصيّة، لانتهى الأمر. ولكنْ بما أنَّ هذه مسائل تتّصل بصورة حميمة بفكرتي عن صحة العقل واحترامي لذاتي، فأنا الآن، في الواقع، مُضطرب كما لم أكنْ طوال حياتي السابقة، حين كان أسلوب الانضباط الاجتماعيّ الذي تمارسه الطبقات المُثقّفة سهلاً عليّ، وكان يمدّني برضا حقيقيّ. والآن إنَّ فكرة بثّ جلساتي الصباحيّة مع مس كلارك عبر محطة التلفزيون الداخليّة في المستشفى، وكون مئات العلماء المُجتمعين في الأروقة في الأعلى يُتابعون نوبات ألمي الهائجة... يُصبح أحياناً لا يُطاق كما باقي العمليّة. ومع ذلك، عندما يؤكّد الدكتور غوردون لي أنَّ «خصوصيتي» مصونة، لا أناقضه. بدل ذلك أقول «شكراً لك على هذا»، وبتلك الطريقة أتمكّن على الأقلّ من التظاهُر أمامهم بأنني أعتقد أنني وحدي حتى وإنْ لم أكن كذلك.

في الواقع، إنها ليست مسألة القيام بما هو صائب أو ملائم؛ أستطيع أنْ أؤكّد لك أنني لستُ مُهتماً بالتصرف اللائق لكوني من الثدييات. بالأحرى أنا مُهتم بالقيام بما يتوجّب عليّ، بالاستمرار بكوني نفسي. فإذا لم أكن نفسي، فمن أنا؟ أو ماذا أنا؟ فإمّا أنْ أستمرّ في أنْ أكون نفسي أو أُصاب بالجنون – ثم أموت. ويبدو أنني لا أرغبُ في الموت. وهذا شيء مُفاجئ لي أنا أيضاً، لكنّه الواقع. ولا أتوقع أيضاً حدوث معجزة، هي نوع من الغارة الانتقاميّة تشنّها هورموناتي اللاثدييّة، وإذا حدث ذلك (والله وحده يعلم إنْ كان هناك مثل تلك الهورمونات في شخص خُلِقَ على شاكلتي)، فإنّه سوف يُزيل العطب. وأعتقد أنَّ الأوان قد فات على ذلك، وعليه، فإنَّ الثدي الإنسانيّ لا يستمر في الرغبة في الوجود بهذا الأمل الذي ينتعش دائماً في الثدي الإنسانيّ. إنني أُصرّ على أنني إنسان، ولكن ليس ذلك الإنسان. ولا أعتقد أنَّ الأسوأ قد انتهى. وينتابني الإحساس بأنَّ الأسوأ لم يأتِ بعد. كلا، الأمر ببساطة هو بما أنني كنتُ أُصاب بالرعب من الموت منذ أنْ كنتُ في الثانية من العمر، أصبحت شديد الكراهية له، اتّخذتُ موقفاً شخصياً ضد الموت يبدو أنني عاجز عن الانسحاب منه لهذا السبب، وهذا شيء مُريع حقاً؛ ولكن من ناحية أخرى، بما أني بقيتُ مدّة طويلة لا أريد أنْ أموت، فلا أستطيع أنْ أكفّ عن ذلك بين ليلة وضُحاها. أحتاج إلى بعض الوقت.

إنَّ عدم موتي أثار، كما تستطيع أنْ تتصوّر، درجة عظيمة من اهتمام عالم الطب. وما زالت هذه المعجزة موضع دراسة المُختصّين في علم الأحياء المجهريّ، والفيزيولوجيا، والكيمياء الحيويّة العاملين هنا في المستشفى وأيضاً، كما قيل لي، في مؤسسات طبيّة في أرجاء البلاد. وهم يُحاولون أنْ يفهموا سبب بقائي على قيد الحياة. ويعتقد الدكتور كلينغر أنّهم كيفما حاولوا حل ذلك اللغز، فإنَّ الأمر يصل في نهاية المطاف إلى عبارات الوعظ القديمة والمُملّة، «قوة الشخصيّة» و«إرادة الحياة». ومَنْ أنا حتى لا أتّفق مع مثل هذا التقدير البطولي لنفسي؟

قلتُ للدكتور كلينغر، «يبدو إذن أنَّ تحليلي» قُبِلَ «تقديراً لك، يا سيدي»، فضحك. «لطالما كنتَ أقوى مما ظننتَ»، «ما كنتُ لأكتشف ذلك بسرعة. ثم إنَّ هذا غير صحيح. لم يعُد في استطاعتي أنْ أعيش هكذا»، «لكنكَ

تفعل، تعيش هكذا»، «أعيش، *ولكن لا أستطيع*. لم أكن قط قوياً. كنتُ فقط ذا تصميم. أضع الأمور في نِصابها. وأنال علامات جيّدة في المواد كلها. يعود هذا إلى زمن تسليم الواجب المدرسيّ في موعده وحمل الجوائز. دكتور كلينغر، *إنَّ المكان فظيع هنا*. أريد أنْ أغادره، أريد أنْ أُصاب بالجنون، أنْ أفقد وعيي، وأقصف وأجمح، *ولكنّي لا أستطيع*. إنني أجهش بالبكاء. أصرخ. أصل إلى الدرك الأسفل. وأستقرّ في ذلك الدرك! ثم أعود إلى وعيي، وأحوِّل مرارتي إلى نكات صغيرة. أستمع إلى الراديو. أستمع إلى الفونوغراف. وأفكّر في ما قلنا. إنني أكظم غضبي وأكظم بؤسي –وأنتظرُ عيادتك التالية لي. لكنَّ استعادتي الوعي جنون. ووضع قدمٍ أمام قَدَم جنون– *خاصّة أنني لا أملك قدمين!* وهذا الشيء المُرعب حدثٌ، وأستمعُ إلى نشرة أخبار الساعة السادسة! هذه الكارثة التي لا تُصدَّق، وأستمع إلى النشرة الجويّة!»، يقول كلا، كلا، الدكتور كلينغر: قوة الشخصيّة، إرادة الحياة.

أقول له إنني أرغب في أنْ أُصاب بالجنون، فيخبرني بأنَّ هذا أمرٌ مستحيل: أمر يفوق قُدراتي، *وأدنى* من قُدراتي. وهذا الكلام هو الذي دفعني إلى اكتشاف أنني قلعة من الصحة العقليّة.

إذن– في استطاعتي أنْ أتظاهر بشيءٍ آخر، لكنني أعلم أنّهم يتفحّصونني، يُراقبون الحياة الخاصّة لخنزير بحر أو خروف بحر من قاربٍ ذي قعر من زجاج. لقد ذكرتُ هذين الحيوانين البحريين الثديين بسبب شبهي الآن بصورة عامة بهما في الحجم والشكل، ولأنَّه يُقال إنَّ خنزير البحر بوجه خاصّ مخلوق يتمتع بالذكاء، بل وعاقل. خنزير البحر كيبيش الدكتور والزميل. أوه، هذه حقاً سخافة، تفاهة، إنّه **لا معنى** للحياة التي أشدّ ما يفتقدها المرء في حياةٍ كهذه. ذلك أنّه بغضّ النظر تماماً عن حقيقتي الشنيعة، والمُثيرة للسخرية، هناك المسؤوليّة الفِكريّة التي يبدو أنني طوّرتها لتناسب هذه المحنة المُنافية للعقل. **ما معنى هذا؟ كيف حدث؟ لماذا حدث مع البروفسور كيبيش بالذات على امتداد تاريخ الجنس البشري كله؟** نعم، إنها براعة من الدكتور كلينغر أنْ يحتفظ بما هو عاديّ ومألوف، أنْ يُثرثر حول قوّة الشخصيّة وإرادة الحياة. إنَّ هذه التوافه أفضل من الأشياء

العظيمة أو النبوءات؛ ذلك أنَّه على الرغم من أنني ربما أمثّل صرح صحة العقل، فهناك الكثير من الأشياء التي حتى أنا أستطيع أنْ أتقبّلها.

حسب معلوماتي، كان الزوار الوحيدون الذين عادوني خلاف العلماء، والأطباء، وطاقم موظفي المستشفى، هم كلير، ووالدي، وآرثر شونْبرون، رئيس إدارة القسم السابق الذي أعمل فيه ويشغل الآن منصب عميد قسم الفنون والعلوم. كان سلوك والدي مُذهلاً. لا أعلم كيف أُعلِّل هذا، ما عدا بالقول إنني ببساطة لا أعرف الرجل البتّة. لا أحد كان يعرف الرجل. العدوانيّ، الماكر، المُستبدّ في عمله - معنا، نحن العائلة الصغيرة، هو بريء، ومُحتاج إلى الحماية، ورقيق، وغارق في الحب. لكنَّ هذا الوجه الهادئ في مواجهة كل هذا الرعب؟ مَنْ كان يتوقَّع هذا من مالك فندق ساوث فولسبرغ من الدرجة الثانية؟ في أول الأمر كان طبّاخاً للوجبات السريعة، وارتقى في نهاية المطاف وأصبح هو نفسه صاحب نُزُل؛ وهو متقاعد الآن، و«يقتل الوقت» في استقبال المكالمات الهاتفيّة الصباحيّة في خدمة التزويد بالطعام الخاصّة بأخيه في بيسايد. كان يأتي لعيادتي مرّة في الأسبوع، ويجلس على كُرسيّ موضوع بالقرب من حلمتي، وينقل إليّ كل الأخبار عن ضيوفنا السابقين. أتتذكّر أبرامز صانع القبعات النسائيّة؟ وكوهين اختصاصي العناية بالأقدام؟ أتتذكّر روزنهايم الذي يمارس خدع أوراق اللعب وصاحب سيارة الكاديلاك؟ نعم، نعم، أعتقد هذا. حسن، هذا اقترب من الموت، وهذا انتقلَ، وابنُ هذا ذهب وتزوّجَ من فتاة مصريّة. قال «ما رأيكَ في هذا؟» ؛ «لم أكنْ أعلم أنهم يسمحون بذلك هناك». إنّه أداءٌ تمثيليّ رائع. ولكن هل هو تمثيل؟ هل هو ألمع المُمثلين في العالم، أم مجرد شخص ساذج، أم أبله تماماً؟ أم هل ليس أمامه أي خيار آخر خلاف الاستمرار في أنْ يكون نفسه؟ ***ولكن ألا يفهم ما حدث؟ ألا يفهم الرجل أنَّ بعض الأشياء أشدّ غرابة من زواج يهوديّ من مصريّة؟***

في غضون ساعة من الزمن سوف يُغادر عائداً إلى المنزل –من دون أنْ يقبّلني. وهذا أمر جديد على والدي، المغادرة من دون تلك القُبلة. وحينئذٍ أدركتُ أنّه ليس أبله. إنّه ***فعلاً*** أداء تمثيليّ– ووالدي رجل عظيم وشجاع ونبيل.

وماذا عن أمي السريعة الانفعال؟ لحُسن حظّها أنها ميتة؛ ولو لم تكن كذلك، لقتلها هذا. أم أنّني مُخطئ بشأنها أيضاً؟ لقد تحمّلت الخبازين المُدمنين والنُذُل القتلة والفتية مساعدي النُذُل الذين ما زالوا يُبللون أسرّتهم - فمن يدري، ربما كان يمكن أنْ تتحمّلني أنا أيضاً. كانت تسميهم *حيوانات، حيوانات فناء مخزن الحبوب*، لكنها كانت دائماً تعود إلى أباريق الشاي، وإلى المُنظّفات وإلى المماسِح وإلى البياضات، على الرغم من القلق الذي تحمّلته منذ عطلة يوم الذكرى وحتى العيد الكبير بسبب نقص المهارة الراديكالي لخادمتنا. أليس من أمي تعلّمتُ التصميم أصلاً؟ أليس من قدوتها تعلّمتُ كيف ينتقل المرء من الصيف إلى الشتاء ومن ثم يعود إلى الصيف من جديد، على الرغم من كل شيء؟ وهكذا، ما زال هناك المزيد من الابتذال: إنَّ في استطاعتي أنْ أتحمّل كوني غدَّة ثدييّة بسبب نشأتي في فندق كاتْسكيل المبتلى بالأزمات.

لم تكن كلير -التي عملَ هدوؤها منذ البداية عمل مادّة مُنشّطة بالنسبة إليّ، وترياق مُهدّئ لتهوّر زوجتي السابقة، وأيضاً أعتقد أنّه كان كذلك بالنسبة إلى خفقان قلب أمي ولكل أزمات مطبخ الفندق- لم تكن كلير، ويا للغرابة، بارعة بقدر براعة والدي في تخفيف ألمها. لكنَّ المُدهش لم يكن دموعها بل ثقل رأسها على جزئي الأوسط عندما انهارتْ وطفقتْ تجهشُ بالبكاء. *وجهها يلتصق بهذا اللحم؟ كيف تسمح لنفسها بلمسي*؟ لقد توقّعتُ ألّا أتعامل بعد الآن مع أي شخص آخر غير الطاقم الطبّيّ. قلتُ في نفسي، «إذا تحوّلتْ كلير إلى قضيب...»، لكنَّ هذه الفكرة كانت من فرط السُخف بحيث لا يمكن افتراض حدوثها - ما دامت لم تتحقَّق. ثم، ما حدث لي حدث لي وليس لأحد غيري لأنّه لا يمكن أنْ يحدث لأي شخص آخر، وحتى لو لم أكنْ أعلم سببه، *فهو أمرٌ واقع*، ولابد أنَّ هناك أسباباً لحدوثه، سواء عرفتُ تلك الأسباب أم لا. وكما لاحظ الدكتور كلينغر، ربما وضْعُ نفسي في مكان كلير يتجاوز بصورة ما نداء الواجب. ربما؛ ولكن إذا تحوّلتْ كلير *فعلاً* إلى قضيب ذَكَريّ بحجم خمسة أقدام وتسعة إنشات، أشكّ في أنْ أتمكَّن من التصرّف بمثل ذلك التفاني.

بعد مرور بضعة أيام على زيارة كلير الأولى لي وافقتْ على تدليك

حلمتي. لو كانت قد بكتْ من مسافة آمنة، لَمَا أسرعتُ كثيراً بتقديم هذا الاقتراح: كان يمكن ألّا أُقدِّمه أصلاً. ولكن حالما شعرتُ بثِقَل رأسها يلمسُني، برزتْ في عقلي كل الاحتمالات وبعد مرور بعض الوقت (وليس بوقت طويل) تجرأتُ على طلب المُمارسة المُطلقة للجنس الغريب، في ظل الظروف السائدة.

يجب أنْ أوضِّح، قبل أنْ أسترسل، أنَّ كلير ليست امرأة مُشاكسة؛ وعلى الرغم من أنّها على امتداد فترة علاقتنا كانت الممارسات الجنسيّة الاعتياديّة تُثيرها بشكلٍ رائع، لم تكن تحب، على سبيل المِثال، المُضاجعة *per anum* (عبر الشرج)، بل كانت تشمئزّ من تلقّي سائلي بفمها. وإذا افترضنا أنّها مارست لعق القضيب، فإنَّ ذلك كان يحدث فقط لفترةٍ وجيزة تسبق المُضاجعة، وليس أبداً بنيّة إثارتي. ولم أتذمّر بمرارة بهذا الشأن، ولكن بين وقتٍ وآخر كنتُ أُسجّل إحساسي بالسخط، كما يفعل الرجال الذين لم يتحوّلوا بعد إلى أثداء - في الحقيقة، لم أكن أحصل على كل ما أريد من الحياة.

مع ذلك كانت كلير هي التي ألمحتْ إلى أنّها سوف تعبث بحلمتي إنْ كان هذا أشدّ ما أرغب فيه.

حدثَ ذلك خلال زيارتها الرابعة التي دامتْ أربعة أيام. وكنتُ قد وصفتُ لها للمرة الأولى كيف تُسعِفني الممرّضة في أوقات الصباح. وخطّطتُ - للمرة الأولى على أيّة حال- لأقول هذا لا أكثر.

لكن كلير سألتْ في الحال. «أتريد مني أنْ أقوم بما تقوم هي به؟»

«هل - تفعلين ذلك؟»

«طبعاً، إذا أردتَ»

طبعاً. يا لك من فتاة رائعة، ممتازة! هتفتُ «أريد! أريد، أرجوك!»

قالت «إذن أخبرني ماذا تريد. أخبرني ما هو الشعور الأمثل»

«كلير، هل يوجد شخص آخر في الغرفة؟»

«كلا، كلا - فقط أنت وأنا»

«هل هناك مَنْ يُصوّرنا تلفزيونيّاً، يا كلير؟»

«أوه، حبيبي، كلا، طبعاً لا»

«أوه، إذن اعصريه، اعصريه بشدّة!»

مرةّ أخرى، بعد ذلك بأيام، بعد أنْ أجريتُ حواراً غير متناسق حول ممرّضتي على مدى حوالي الساعة، قالت كلير «عزيزي ديفيد، ما الأمر؟ أتريد فمي؟»

«نعم، نعم!»

«كيف تجرّأت؟ كيف تتجرّأ؟ لِمَ تفعل ذلك؟ هل أفعل *أنا* هذا؟ وأقول للدكتور كلينغر» هذا طلب فيه مُغالاة. شنيع جداً. يجب أنْ أتوقف عن فعل ذلك. أريد منها أنْ تقوم به طوال الوقت، في كل دقيقة من وجودها هنا. ولكن لا أريد أنْ أقول المزيد. لا أريد منها أنْ تقرأ لي –بل لا أريد أنْ أصغي. أريد فقط منها أنْ تعصره وتمصّه وتلعقه. إنني لا أكتفي من هذا. لا أطيق أنْ تتوقف عن فعله. إنني أصرخ، وأزعق، «استمري! أريد المزيد! استمرّي!». ولكن سوف أُبعدها، أعلم أنني سوف أفعل، إذا لم أتوقف. ومن ثم لن يتبقَّى لدي أحد. حينئذٍ لن يتبقّى لدي إلّا ممرّضة الصباح. سوف يأتي والدي ويُخبرني مَنْ مات ومَنْ تزوّج. وسوف تأتي أنت لتُخبرني عن شخصيتي القويّة وعن إرادتي للحياة. *لكنّني لن أحصل على امرأة!* لن أحصل على كلير أو على الجنس أو على الحبّ بعد الآن! لا أريد أنْ أُبعِدها، إنَّ الأمر غريب الأطوار الآن– لكنّني أريد منها أنْ تخلع ملابسها، كلها، وتُنزلها عند قدميها، على الأرض. أريد منها أنْ تنهض واقفة وتأتي إليّ *وتتدحرج* عليّ. أوه، يا دكتور، كم أرغب في نكاحها! بحلمتي! ولكنْ حتى لو قلتُ هذا، فسوف يُبعِدها! سوف تَهرب ولن تعود أبداً!»

كانت كلير تعودني في مساء كل يوم بعد العشاء. وفي النهار كانت تُدرِّس الصف الرابع في مدرسة بنك ستريت هنا في نيويورك. وهي خريجة من جامعة كورنيل تنتمي إلى جماعة فاي بيتا كابّا؛ أمّها مديرة مدرسة في شينيكتادي، وهي الآن مُطلّقة من والدها، المُهندس الذي يعمل مع ويسترن إلكتريك. أختها الأكبر سناً متزوجة من عالِم اقتصاد في غرفة التجارة، وتعيش معه ومع أربعة أطفال في مدينة ألكسندريا، ولاية فيرجينيا. وهم يمتلكون منزلاً يقع على الشاطئ الجنوبيّ من مارثاز فاينيارد، حيث قمنا أنا وكلير بزيارتهم ونحن في طريقنا لقضاء العطل الأسبوعيّة في نانتكيت في

الصيف الفائت. تناقشنا في السياسة -عن الحرب في فيتنام. بعد ذلك، لعبنا لعبة صائد الذباب مع الأطفال على الشاطئ ثم انطلقنا لكي نأكل السرطان البحري المسلوق في إدغغارتون؛ وبعد ذلك ذهبنا لنشاهد فيلماً سينمائيّاً، مخلوقان لاحمان ضخمان، كثيفا الشَعر، اختُزِلَا وسط الظلام الأليف إلى مجرد وجهين حرقتهما الرياح وإلى أصابع يُغلّفها الزبد. لذيذة. وأمضيناً وقتاً ممتعاً، حقاً، «منسجماً» على غرار مُضيفينا- علم أنهم كانوا منسجمين لأنَّ هذا ما كانوا يقولونه طوال الوقت. في حين أننا أمضينا وقتاً ممتعاً جداً. كان جمالها يلفت الأنظار على الشاطئ، شقراء ذات عينين خضراوين، ممشوقة القامة ونحيلة وممتلئة الصدر. كنتُ أحبّ أُنْ أستلقي على السرير وأراقبها ترتدي ملابسها في الصباح وتخلعها في الليل، على الرغم من شهوتي الضعيفة. وبين ثدييها، أفكّ مشبك ملابسها الداخليّة القصيرة وأراها وهي تسقط. وتقول «تخيّل كيف سيكونان وأنا في سن الخمسين، إذا كانا رخوين هكذا وأنا في الخامسة والعشرين». أقول «لا أستطيع، ولا أريد»، وأجرّها لتركع على رُكبتيها. وأسترخي إلى الخلف على الرمل الساخن، وأحفره بعقبيّ قدَميّ، وأُغمضُ عينيّ وأنتظر بشفتين منفرجتين لكي يملأ ثديها فمي. أوه، ما أروعه من إحساس، ونحن هناك وأمواج البحر تهدر تحتنا! وكأنّه الكرة الأرضيّة نفسها -كرة أرضيّة ناعمة قابلة للمصّ!- وأنا إله البحار بوزيدون أو إله الآلهة زيوس! أوه، لا شيء يُضاهي مسرّات الإله المُجسَّم، وأقول «دعينا نقضي الصيف كلّه بجوار المُحيط»، كما يفعل الناس في أول يوم سعيد من العطلة. وتهمس كلير «فلنذهب أولاً إلى المنزل ونمارس الجنس». كان قد مرّ وقت طويل لم نفعل ذلك - كانت على صواب. أقول «أوه، دعينا نكتفي بالاستلقاء هنا. أين ذلك الشيء الغريب؟ أوه من جديد، من جديد»، «لا أريد أنْ أقطع عنك مصدر الهواء. كان لونك يتحول إلى الأخضر»، أقول «من الحسد».

نعم، أعترفُ صراحةً، هذا ما قلتُ. ولو كانت هذه قصّة خرافيّة وليستْ قصة حياتي، لحصلنا على العِبرة الأخلاقيّة: «حذار من الشهوات الشنيعة - فقد يُحالفك الحظ». ولكن هذه حتماً **ليست** قصّة خرافيّة- ليس بالنسبة إليّ، يا عزيزي القارئ -لِمَ ينبغي على أُمنية كهذه أنْ تتحقّق؟ أؤكّد لك أنني في

حياتي رغبتُ في أشياء أقلّ غرابة بكثير ممّا أردت ونحن على ذلك الشاطئ. لِمَ ينبغي على الكلمات الجميلة، والعابثة- التي قيلتْ في اليوم الأول من إجازتنا الرعويّة! - أنْ تُصبح لحماً، في حين أنَّ كل ما أردتُ بكل رصانة لم أتمكّن من تحقيقه، هذا إنْ حدثَ أصلاً، إلّا بالسير على درب امتدَّ ثمانية وثلاثين عاماً؟ كلا، إنني أرفض التخلّي عن حيرتي لمصلحة نظريّة تحقيق الأمنيات. وعلى الرغم من أنّها قد تكون نظرية أنيقة ومسايرة للنمط الحديث وتأديبيّة مُبهِجة، فإنّني أرفض أنْ أُصدِّق أنني هذا المخلوق لأنَّه ما أردتُ أنْ أكون. كلا! إنَّ الواقع هو أفخم قليلاً من هذا. الواقع يتَّسِم *بقدرٍ* من الأناقة.

وهكذا، بالنسبة إلى الذين يُفضّلون سماع قصّة خرافيّة على عيش الحياة، إليكم هذه العِبرة الأخلاقيّة: لقد خلُصَ البروفسور الذي يشعر بالمرارة وتحولَ لأسبابٍ مجهولة بالنسبة إليه إلى ثدي أنثى إلى أنَّ «الواقع يتَّسِم بالأناقة». اذهب، أيّها الحيوان الخرافيّ الأنيق، الراضي عن نفسه، الذي لم يحدث معه حتى الآن أيّ شيء مُثير للغثيان، اذهب وعِظ حول هذا!

عندئذٍ لم أُقدِّم عَرضي «الغريب» إلى كلير، بل إلى ممرِّضتي الأنثى. قلت «أتعلمين فيمَ أُفكِّر وأنتِ تغسلينني هكذا؟ هل أستطيع أنْ أخبرك فيمَ أفكِّر في هذه اللحظة؟»

«فيمَ، بروفسور كيبيش؟»

«أحبّ أنْ أنكحك بحلمتي»

«لا أستطيع سماعك، يا بروفسور»

«إنني أشعر بالإثارة إلى درجة أنْ أرغب في نكاحك! أريد منكِ أنْ تجلسي على حلمتي - بكسّك!»

«سوف أنتهي من غسلك في الحال...»

*«ألم تسمعينني، أيّتها العاهرة؟ هل سمعتِ ما أريد؟ »*

«إنني أُجفّفك الآن...»

حالما وصل الدكتور كلينغر عند الساعة الرابعة كنتُ قد أصبحت مئة وخمسة وخمسين رطلاً من الندم. بل وبدأتُ أجهشُ قليلاً بالبكاء عندما

أخبرته بما فعلتُ – على الرغم من هواجسي وعلى الرغم من تحذيره. قلت، الآن إنّه مُسجَّل على شريط؛ وحسب عِلمي، سوف يظهر على الصفحة الأولى في نسخة الغدّ من صحافة الإشاعات. لحظة ضوء بالنسبة إلى الذين يتشبّثون بالحافلات في طريقهم إلى مراكز أعمالهم. لأنّه كان هناك حتماً جانب فكه لذلك كلّه؛ ما معنى الكارثة من دون جانبها الفكه؟ إنَّ المسّ كلارك –كما كنتُ أعلم طوال الوقت– هي عانس قصيرة القامة، ممتلئة، في الخمسين من العمر.

خِلافاً للدكتور غوردون، أكّدتْ لي كلير، ووالدي، الذي كان دائماً يؤكّد لي أنَّ الذين يُراقبونني باستمرار ليسوا إلّا الذين أعلنوا عن حضورهم، أنَّ الدكتور كلينغر لم يُزعِج نفسه حتى بمناقشة الأمر معي. «ثم؟ ماذا لو ظهر على الصفحة الأولى؟ ما أهميّة هذا؟»

قلتُ، وما أزال أبكي، «هذا ليس من شأن أحد!»

«ولكن حتماً أنت تريد أنْ تفعل هذا، أليس كذلك؟»، «نعم! نعم! لكنّها تتجاهلني! إنها تتظاهر بأنني أطلب منها أنْ تُسرِع وتُنهي الأمر! لمْ أعُد أريدها! أريد ممرّضة جديدة!»

«أتفكّر في واحدة معيَّنة؟»

«في واحدة صغيرة السن – واحدة جميلة! ولِمَ لا!»

«في واحدة تسمعكَ وتوافق»

«نعم! ولِمَ لا؟ غير ذلك يُعتبَر جنوناً! يجب أنْ أحصل على ما أريد! هذه ليست حياةً طبيعيّة ولن أتظاهر بأنها كذلك! *وأنتَ* تريدني أنْ أكون طبيعيّاً، *تتوقَّع* مني أنْ أكون طبيعيّاً –في ظل هذا الظرف! من المُفترَض بي أنْ أكون رجلاً عاقلاً ومعقولاً– في ظل هذا الظرف! لكنَّ هذا تصرّف حنونيّ منك. دكتور! أريد منها أنْ تجلس عليّ بكسّها! ولِمَ لا؟ أريد من كلير أنْ تفعل هذا! ما الذي يجعله «شيئاً غريباً»؟ أما الشيء *الغريب* فهو حرماني من متعتي وسط ذلك! أريد أنْ أُناك! لِمَ لا يحدث لي هذا؟ أخبرني لِمَ لا يحدث هذا! بدل أنْ تُعذّبني! بدل أنْ تمنعني من الحصول على ما أريد! بدل ذلك أستلقي هنا وأُصبح معقولاً! وهذا هو الجنون بعينه، يا دكتور – أنْ أكون معقولاً!»

لا أعلم كم فهم الدكتور كلينغر مما قلته؛ من الصعب مُتابعتي عندما أتكلَّم بدقّة، بتركيز، وها أنا الآن أجهشُ بالبكاء وأجأر متجاهلاً آلات التصوير التلفزيونيّ أو المشاهدين هناك في الأعلى... أم أنَّ هذا هو سبب استمراري على هذا المنوال؟ أحقاً عذّبني ذلك العَرض الذي قدَّمتُه في صباح ذلك اليوم لمس كلارك؟ أم كان العرض إلى حدّ بعيد لمصلحة جمهوري العريض لكي أُقنعه بأنني، بغضّ النظر عن المظاهر، ما زلتُ رجلاً بكل معنى الكلمة - إذ مَنْ غير الرجل لديه ضمير، وعقل، وشهوة ويشعر بالندم؟

استمرّتْ هذه الأزمة شهوراً. وازددتُ فسقاً في تعاملي مع البدينة، الخالية من العيوب، مس كلارك، إلى أنْ عرضتُ عليها في نهاية المطاف نقوداً في صباح أحد الأيّام. «انحني - خذيه من الخلف! سوف أعطيك أي شيء تريدين!» كيف سأضع النقود في يدها، رحتُ أفكّر خلال أيامي الطويلة الخالية كيف سأعمل على اقتراض المال إذا طلبَتْ مبلغاً يفوق ما ادّخرتُ في حسابي. مَنْ سيساعدني؟ لم أستطع أنْ أطلب ذلك من والدي أو من كلير، وكانا الشخصَين الوحيدين اللذين رغبتُ في أنْ يرياني. ربما هذا شيء سخيف، إذا أخذنا بعين الاعتبار مدى ثقتي بأنَّ صورتي التي سجّلتها آلات تصوير التلفزيون بلا رحمة ومسار حياتي اليوميّة الذي نشرته صحيفة دايلي نيوز، لكنّي لا أبرهن على أنَّه منذ أنْ تحوّلت أصبحتُ مِثال السلوك المسؤول الناضج. إنني فقط أبذل قُصارى جهدي في محاولة وصف المراحل التي كان عليّ أنْ أجتازها في الطريق إلى المرحلة الحاليّة من توازن الكآبة... طبعاً لمُساعدتي -لأحصل على النقود، من أجل إجراء الترتيبات الماليّة، إمّا مع المسّ كلارك أو، إذا احتاج الأمر، مع امرأة مهنتها لا تُقيّدها وجهة النظر الأخلاقيّة لمُمرّضة- كان في وسعي بسهولة أنْ أُعرِّج على زميل شاب مُلتح، شاعِر بارع من بروكلن لا يدّعي الاحتشام وأكسبَته روح المغامرة الجنسيَّة سمعة سيئة نوعاً ما في قسم اللغة الإنكليزيّة. ولكن حتى أنا لم أكن مُفرط الاحتشام، وذات يوم كان لديّ ميل إلى خوض المغامرة الجنسيّة التي لا تقلّ تطوّراً عن مغامرة صديقي الشاب. ويجب أنْ تفهم أنَّ الرجل الذي عذَّبته شهواته وهو يستلقي على الأرجوحة الشبكيّة ليس رجلاً ضيِّق التجربة وتقيّده موانع خانقة. كانت لديّ تجارب سهلة مع عاهرات

عندما كنتُ في عشرينيات عمري، وخلال عام وأنا طالب بمنحة فولبرايت في لندن، أقمتُ علاقة مُثيرة، مُرهِقة، مع امرأتين شابتين -طالبتين في مثل سنّي كانتا في إجازة من جامعة في السويد، وتقاسمتا غرفة نوم تحت أرضيّة معي- إلى أنْ حاولت الفتاة الأقلّ توازناً بينهما بلا حماس أنْ ترتمي تحت دواليب سيارة شاحنة. كلا، إنَّ ما أثار رعبي ليس غرابة شهواتي وأنا على تلك الأرجوحة الشبكيّة، بل الدرجة التي سأنفصل بها عن ماضي حياتي -ونوعها- بالاستسلام لتلك الشهوات. كنتُ أخشى أنني كلما تماديت سوف أتمادى أكثر -أنني سوف أصل إلى نقطة من الهذيان انتقل منها إلى حالة من الوجود لا صِلة لها بالشخص أو بالحالة اللذين كنتُ عليهما. بل ليس لأنني لن أعود إلى سابق عهدي- لن أكون أي شخص. سوف أُصبحُ لحماً نهماً لا أكثر.

وهكذا، بمساعدة الدكتور كلينغر، بدأتُ أُخمِد -وإذا لم أقُلْ أُخمِد، على الأقلّ أنْ *أحتمل* (كلمة كلينغر المُفضّلة)- الرغبة في إقحام حلمتي في فرج امرأة. لكنني أُصبح عاجزاً حالما تبدأ عمليّة الغسل تلك على الرغم من قوة إرادتي كلها -وكما كان يحدث مع أمي، يمكن لقواي تلك أنْ تكون هائلة عندما أحشدها. وأخيراً تقرَّر أنَّه يجب رش الحَلمَة والحَلَقَة المُحيطة بها بمُخدِّر مُعتدل قبل أنْ تباشِر المس كلارك إعدادي لاستقبال النهار. وقد أدّى ذلك في الحقيقة إلى اختزال الإحساس بقدرٍ كافٍ بحيث تُصبح لي اليد الطولى في معركتي ضد تلك الحوافز غير العمليّة- لكنّها معركة لم أنتصر فيها إلّا عندما قرَّر الأطبّاء، بموافقتي، تغيير ممرّضتي.

ونجحت الخدعة. كان من المُستحيل أنْ أتخيّل أنّني أستمدّ من إقحام حلمتي إمّا في فمّ أو في شرج السيد بروكس، المُمرِّض الذكَر الجديد، أيّة إثارة تشبه تلك التي أتخيَّلها من إقحام حَلَمَتي في كلير، أو حتى في مس كلارك، على الرغم من أنني أُدركُ أنَّه من الصعب وصف ولوج فم ذَكَر أو حَلَمة أنثى على أنّه فعلٌ شاذّ. لكنَّ قوة حياتي الماضيّة وما تحتوي من مُحرّمات، وقوة السيطرة على تخيّلي النساء وثقوبهن هي من الضخامة بحيث إني الآن قادر -وأنا مُخدَّر مؤقّتاً وبين يديّ رجل- على تلقّي غسلي الصباحيّ كأي مريض آخر، بصورة أو بأخرى.

وما زالت كلير متوفّرة، كلير الملائكيّة الهادئة، لـ«ممارسة الجنس» معي، بفمها إذا لم أقُل بفرجها. ألا يكفي هذا؟ أليس هذا شيئاً لا يُصدَّق بقدرٍ كافٍ؟ طبعاً أنا أحلم **بالمزيد**، أحلم بهذا طوال اليوم -ولكن ما فائدة **المزيد** بالنسبة إليّ في كل الأحوال، إذا لم تنته إثارتي برعشةٍ جنسيّةٍ، بل فقط بهذا الإحساس الثابت بالقذف الوشيك أتلوّى خلاله منذ اللحظة الأولى وحتى الأخيرة؟ في الحقيقة، لقد توصّلتُ الآن إلى القبول بأقلّ من **المزيد**. وأعتقد أنَّه كان الأفضل أنْ أفعل هذا إذا لم أرغب في أنْ تأتي كلير وتجد أنّها ليست أكثر من الآلة الأنثويّة التي تُستدعى في مساء كل يوم من أجل خدمة الكائن المنافي للطبيعة الذي كان ذات يوم ديفيد كيبيش. وطبعاً كلّما قلّتِ الفترة التي يقضيها مع حلمتي، ازدادتْ فُرصتي في البقاء شيء آخر بالنسبة إليها (وإليّ) خِلاف تلك الحلمة. وهكذا، خلال فقط نصف مدَّة زياراتها التي كان يبلغ طول كلٍ منها ساعة من الزمن أصبحنا الآن نمارس الجنس- وما تبقّى من وقت كنا نقضيه في الحديث. وإنْ استطعت، كنتُ أحبّ أنْ أقطع فترة العبث الجنسي إلى نصفَين آخرين. وإنْ كانت الإثارة دائماً على مستوى واحد، لا تزيد ولا تنقص في الشدّة منذ بدايتها، فما الفرق إذا كانت مدّتها خمس عشرة دقيقة بدل ثلاثين؟ ما الفرق إذا دامت فقط دقيقة *واحدة*؟

ألفتُ انتباهك إلى أنني لم أُصبح بعد أهلاً لمثل ذلك الزهد، ولا اقتنعتُ بأنَّه مرغوب من وِجهة نظر كلير. لكنني أؤكّد لكَ أنّ اعتناق هذه الفكرة ببساطة بعد العذاب الذي عرفته شيء كبير. وحتى الآن ما زلتُ أمرّ بلحظات، قليلة لكنها تترك أثراً، أبذل خلالها أقصى جهدي كي لا أصرخ، بينما شفتاها تجسّان حلمتي بانتظام، قائلاً «مارسي الجنس معها، يا أوفينغتون، بكسّك!» لكنّي لا أقول شيئاً، لا أقول. لو أرادتْ كلير أنْ تفعل ذلك، لفعلته. ثم إنها، قبل كل شيء، ما زالت مجرد مُدرِّسة صف رابع في مدرسة بانك ستريت، فتاة نشأتْ في شينيكتادي، في نيويورك، وانتسبتْ إلى جماعة فاي بيتا كابّا في جامعة كورنويل. ولا معنى لدفعها إلى التفكير بتمعُّنٍ شديد في الأمور الغريبة التي أعلنتْ تواً، وبصورة مُعجزة، عن رغبتها في مُمارستها مع أمثالي.

في وقتٍ ما بين «الأزمتين» الكبيرتين نجوتُ إلى حدٍّ بعيد هنا في المستشفى -إنْ كانت حقاً مستشفى- حتى إنَّ آرثر شونبرون، عميد قسم الفنون والعلوم في ستوني بروك عادني مع شخصٍ عرفته منذ بالو آلتو، عندما كان البروفسور الشاب *الجذّاب* في ستانفورد وكنتُ أنا هناك أعمل على نيل درجة الدكتوراه. وقد أحضرني آرثر من ستانفورد إلى ستوني برك قبل ثمانية أعوام لأشغلَ منصب رئيس قسم الأدب المُقارَن الذي تأسَّسَ حديثاً. إنّه الآن يقترب من سن الخمسين، سيد محترم، ساحر وعنيد، وبوصفه أكاديمياً كان ذا سلوك ومظهر دمثين، بصورة غير عاديّة، وشبه مُفزعة. وخبرتُه الاجتماعيّة بالإضافة إلى تعارفنا الطويل الأمد قاداني (مع الدكتور كلينغر) إلى الاستقرار أخيراً على آرثر لأعتبره أفضل شخص أخرجُ معه للمرة الأولى إلى المجتمع إثر انتصاري على شبق حلمتي الجنسيّ. وأردتُ أيضاً من آرثر أنْ يأتي لكي أتمكن من التحدث معه -إذا لم يكن خلال زيارته الأولى، فليكن في التي تليها- حول كيفيّة المُحافَظة على صِلتي الروحيّة بالجامعة. وأنا في ستانفورد كنتُ «قارئاً» في أحد صفوف السنة الثانيّة ذات الأعداد الضخمة من الطلاب التي كان يُلقي فيها مُحاضرات في «أمهات الأدب الغربيّ». وكنت قد بدأتُ أتساءل إنْ كنتُ أستطيع أنْ أمارس بعضاً من تلك النشاطات من جديد. كان في استطاعة كلير أنْ تقرأ لي بصوتٍ مرتفع أطروحات الطلاب، وأستطيع أنْ أُملي عليها تعليقاتي والدرجات التي أضعها... أم إنَّها فكرة عقيمة؟ واستغرق من الدكتور كلينغر عدَّة أسابيع لتشجيعي على اعتقاد أنّه لا غضاضة في السؤال.

لم تُتح لي الفرصة قط. وحتى وأنا أخبره، مع قليل «من البكاء» -لم أستطع كبح دموعي- عن مدى تأثّري لأنّه سيكون أول زملائي الذين أقوم بزيارتهم، وأعتقد أنني سمعتُ ضحكاً مكبوتاً. سألته «آرثر، هل أنتَ وحدك -؟»، فقال «نعم»، ثم ضحك ضحكاً مكبوتاً، شديد الوضوح. استطعتُ، وأنا الأعمى، أنْ أتخيَّل مُعلّمي السابق: بسترته الرياضيّة الفضفاضة الزرقاء ذات البطانة المُزركشة المُفصّلة في لندن خصيصاً لأجله على يد كيلْغور، الفرنسيّ؛ وببنطلونه الفانيلا الناعم، وحذائه الرياضيّ اللامع ماركة غوتشي، العميد الدبلوماسيّ بكتلة شعره الأنيقة الموشّاة بالشيب- يضحك ضحكاً

مكبوتاً! ولم أكنْ قد اقترحتُ بعد أنْ أُصبح قارئاً لمصلحة القسم. ضحكَ ضحكاً مكبوتاً -ليس على أي شيء يُثير السخرية اقترحتُه، بل لأنّه وجد أنّه صحيح، في الواقع لقد كنتُ قد تحوّلتُ *فعلاً* إلى ثدي. إنَّه مُستشاري في مدرسة التخرّج، المتقدِّم عليَّ في الجامعة، أشدّ من عرفت من بروفسورات دماثة في حياتي- ومع ذلك، بدا من نبرة صوته أنَّ الضحك المكبوت طغى عليه *لمجرد رؤيتي*.

«أنا -أنا- ديفيد-» لكنه حينئذٍ كان منغمساً في الضحك إلى درجة أنّه عجز عن الكلام. آرثر شونبرون عاجز عن الكلام، عن التحدث عمّا لا يُصدَّق. ثم عشرون، ثلاثون ثانية أخرى من الضحك الهادر، ثم رحل. كانت الزيارة قد استمرّتْ حوالي ثلاث دقائق.

بعد ذلك بيومين جاء الاعتذار، وبكل أناقة، في رأيي، كأي شيء كتبه آرثر منذ أنْ أصدر كتابه الصغير عن روبرت موزيل. وفي الأسبوع التالي، وصلَ الطرد من مكتب سام غوديل، مُرفقاً ببطاقة موقّعة، «من ديبي وآرثر ش.»، أسطوانة كبيرة تضم تسجيلاً لمسرحيّة «*هاملت*» بصوت لورنس أوليفييه.

كان آرثر قد كتب: «ما كان ينبغي على سوء طالعك أنْ يُفاقم من أدائي الضعيف، الذي لا يُغتفَر. إنني أرتبك في شرح ما ألمَّ بي. وإذا حاولتُ أنْ أشرح فسوف نُفاجأ بأننا نحن الاثنين شديدا النفاق».

عملتُ على إعداد إجابة طوال أسبوع. أمليتُ بسهولة ما يُقارِبُ الخمسين رسالة: لبقة، سلسة، مُتسامحة، خفيفة الظل، جديّة، مُثيرة للشفقة، عمليّة، ماكرة، خبيثة، جامحة، أدبيّة الأسلوب - بل إنَّ بعضها أشدّ سُخفاً من التي أرسلتُها. كتبتُ أقول لآرثر، «تقول إنكَ ضعيف؟ إنَّ هذا دليل على حيويتك الدنيويّة حتى إنَّ عليك أنْ تضحك من نفسك. بل أنا الضعيف، وإلّا لانضممتُ إليك. إنْ كنتُ قد فشلتُ في استحسان المسرحيّة الهزليّة الكبرى لهذا كلّه، فذلك فقط لأنني حقاً أُشبه شخصيّة آرثر شونبرون أكثر منك، أنت تافه، أبله تحبّ نفسك، دلّوع!». أما التعليق الأخير الذي استقررتُ عليه فيقول ببساطة: «عزيزيَّ ديبي وآرثر ش.: شكراً جزيلاً على الجوانب المُثيرة. ديف» الثدي «ك.». راجعتُ النصّ مرّتين مع كلير لكي أتيقّن من أنها

أحسنت كتابة «شكراً» قبل أنْ تذهب لكي تودِع الرسالة القصيرة صندوق البريد، أتيقَّن من أنها أودعَتها البريد، أو حتى من أنّها دوّنتها.

الأزمة الثانية التي هدَّدتْ بالقضاء عليّ ويبدو أنني -في الوقت الراهن- نجوتُ منها يمكن وصفها بأنها أزمة إيمان. وبما أنّها قد حدثتْ بعد زيارة آرثر بشهرٍ كامل، فمن الصعب معرفة إنْ كانت بأي شكل قد تسبَّبتْ بها تلك المُهانة. ومنذ ذلك الحين وأنا أكره آرثر شونبرون بسبب ذلك اليوم -على الأقلّ بقيتُ أعمل على البقاء هكذا منذ ذلك الحين- لذلك أميل الآن إلى الاتّفاق مع الدكتور كينغر، الذي يعتقد أنَّ ما عليّ أنْ أكافحه بعد ذلك محتوم ولا يمكن عزوه إلى الدقائق الثلاث التي أمضيتها مع العميد. ومن الجليّ أنّه لا يمكن عزو أي شيء مما حدث إلى أي شخص، ولا حتى إليّ.

ما حدثَ بعد ذلك هو أنني رفضتُ تصديق أنني تحوّلتُ إلى ثدي. بما أنني تخلّيتُ (بصورة أو بأخرى) عن أحلامي بمضاجعة كلير، ومس كلارك -أو أي امرأة تقبلني- بالثدي، أدركتُ أنَّ الأمر كلّه مستحيل. لا يمكن للرجل أنْ يتحوّل إلى ثدي إلّا في مخيّلته.

استغرقَ مني فهمُ هذا ستة أشهر.

«اسمع، لن يحدث هذا – لا يمكن!»

سأل الدكتور كلينغر «لِمَ لا يمكن؟»

«أنت تعلم السبب! أي طفل يعرف السبب! لأنها استحالة فيزيولوجيّة وبيولوجيّة وتشريحيّة!»

«إذن كيف تفسّر ورطتك؟»

«كأنني في حلم! لم تمرّ ستّة أشهر – هو أيضاً وهم. أنا أحلم! كل ما في الأمر هو أنني استيقظت!»

«لكنك يقِظ، يا سيد كيبيش. وتعلم جيداً أنك يقِظ»

«كفاك ترديداً لهذه الكلمة! لا تعذّبني هكذا! دعني أنهض! كفى! أريد أنْ أستيقظ!»

كافحتُ على مدى أيام عديدة -أو ما تراءى لي من كوابيس على مدى

أيام– لكي أدفع نفسي إلى الاستيقاظ. كانت كلير تأتي في مساء كل يوم لكي تمصّ حلمتي ونتحدث، وجاء والدي في يوم الأحد لكي ينقل إليّ آخر الأخبار. وكان السيد بروكس يحضر في صباح كل يوم، لكي يوقظني من النوم بربت رقيق حول حواف حلمتي. على الأقلّ تخيّلتُ أنّه كان يوقظني بلمس حافة حلقة حلمتي. ثم أدركتُ أنني لم أستيقظ من نومٍ حقيقيّ، بل من نومٍ نمتُه داخل الكابوس نفسه. لم أكن ثدياً يقظاً – كنتُ ذاتي، وما زلتُ أحلم.

أوه، كم لعنتُ الذين أسروني – ولكن إنْ كان حُلماً فإنني حتماً ألعنُ آسرين من اختراعي. ***توقفوا عن تعذيبي، كلّكم! فليساعدني أحدكم في الاستيقاظ!*** لعنتُ المُشاهدين الذين تجمّعوا في الرواق الذي أقمتُه. لعنتُ عمّال الصيانة على شبكة التلفزيون الداخليّة التي تخيّلتُها –صرختُ، ***أيها المُتلصّصون!، يا عديمي الرحمة، بنظراتكم الحالمة، أيها المتلصصون الساديون!***– وأخيراً قرّروا، خشية أنْ ينهار جسمي المُنهك تحت وطأة الضغط الانفعاليّ (نعم، تلك كانت الكلمات القلقة التي وضعتُها في أفواههم الكاذبة)، قرروا أنْ يُخضعوني لتأثير مُخدِّر قويّ. وكم جأرتُ عندئذٍ! –***يا كلير أيتها العاهرة الباردة! أيها الأب الغبيّ، الجاهل! وأنت دجّال يا كلينغر! أنتَ محتال يا كلينغر!***– بينما العقار يوهنني، العقار المُخدِّر الذي يتعاطاه الحالم بنفسه.

عندما استعدتُ وعيي، أدركتُ أخيراً أنني أصبحتُ مجنوناً. لم أكنْ أحلم. كنتُ مجنوناً. سوف يحدث استيقاظٌ سِحريّ، لا نهوض من السرير، ولا تنظيف أسنان، ولا انطلاق لكي أمارس التدريس وكأنَّ ما قاطعَ سيرَ حياتي المعتادة الروتينيّة ليس أكثر من كابوس؛ إنْ كان قد تبقّى أي شيء لي، فهو طريق العودة الطويلة –إلى استعادة عقلي. وطبعاً كانت الخطوة الأولى نحو استعادة صحّة العقل هي هذا الإدراك أنَّ إحساسي بنفسي كثدي هو وهم شخصٍ مجنون، إدراكُ أنّه بدل أنْ أتأرجح على أرجوحة شبكيّة إثر حدوث كارثة في الغدد الصمّاء على عكس أي شيء عرِفه اختصاصيو الغُدد الصمّاء من قبل، اكتفيتُ بالجلوس ببساطة، موهوماً، في غرفةٍ في مستشفى أمراض عقليّة. ونحن نعلم أنَّ هذا أمرٌ يحدث للعديد من الناس، طوال الوقت. وكوني عاجزاً عن الرؤية، وعن التذوّق، والشمّ، وكوني لا أسمع إلّاً

قليلاً، وعاجزاً عن الاتصال بتركيبي البنيويّ، وأنَّ تجربتي في التحدّث مع الآخرين تشبه كوني مدفوناً داخل نسيجي الدهنيّ، وأكاد أختنق به- أكانت هذه أعراضاً غريبة في عالم الاضطراب الذهنيّ؟

لكنّي لا أفهم كيف فقدتُ سلامة عقلي. ما الذي أحدثَ ذلك الانفصام الشامل في شخصيّة شخصٍ يبدو ظاهرياً في *أحسن حال*؟ ولكن كائناً ما يمكن أنْ يكون قد سبّبَ ذلك الانهيار فهو من دون أدنى شك مُخيف إلى درجة أنّني سوف *أُضطرّ* إلى محو ذكراه كلّها.... إذن لماذا كان الدكتور كلينغر - لأنَّه من المؤكَّد أنني كنتُ أتحدث مع الدكتور كلينغر؛ كان ينبغي أنْ أتيقّن من شيء ما إذا أردتُ أنْ أبدأ من جديد، لذلك تشبّثتُ بلغته الإنكليزيّة ذات اللكنة المعتدلة، وبسلوكه الصريح وبفكاهته الأليفة كبرهان على أنَّ *هذا* على الأقلّ كان حقيقيّاً حسب تجربتي -إذن لماذا كان الدكتور كلينغر يطلب مني أنْ *أتقبّل* قَدَري، في حين أنَّ العودة إلى سلامة العقل تعني تحدّي هذا التصوُّر الجنونيّ بكل معنى الكلمة لذاتي؟ الجواب واضح- كان ينبغي أنْ يكون كذلك طوال الوقت! *ليس هذا ما كان كلينغر يقوله*. لقد كان مَرَضي شيئاً جديّاً إلى درجة أنني كنتُ أتلقّى كلماته، البسيطة والواضحة عندما ينطقها، وأنسبُ إليها المعنى المناقض لها مباشرة.

عندما جاء بعد ظهيرة ذلك اليوم، كان ينبغي أنْ أحشد قوّة شخصيتي الشهيرة لكي أَشرح، بأقصى ما أستطيع من بساطة ووضوح، اكتشافي الذي لا يُصدَّق. وبعد أنْ انتهيتُ أجهشتُ بالبكاء، لكني فيما عدا ذلك كنتُ مفوّهاً بالكلام كعادتي. في التدريس، يسمع المرء أحياناً نفسه يتكلَّم ببراعة مثاليّة، مُشكّلاً الأفكار على هيئة جُمل مُستديرة، ويُركبّها ضمن فِقرات ممتلئة حتى الزبى، حتى يُصبح من الصعب حينئذٍ تصديق أنَّ الشخص الذي يُخاطب فجأة طلابه الذين يرين عليهم الصمت بلغة ذهبيّة وبحزم بالغ يمكن أنْ يكون قد دوّنَ تلك الملاحظات المُشوّشة قبل ساعة من الزمن، والأصعب من ذلك في التصديق هو أنَّ نبرات الصوت المحسوبة التي نقلتُ بها الخبر الجيد للدكتور كلينغر خرجَتْ من رجل مجنون بذيء كان ينبغي على حرّاسه أنْ يُخدّروه قبل ذلك بيوم. إنْ كنتُ لا أزال مجنوناً -ما دمتُ ثدياً، فأنا مجنون- فإنني، على الأقل، أحد أشد النزلاء صفاءً وفصاحة.

قلتُ «الغريب في الأمر هو أنَّ زيارة آرثر شونبرون هي التي أقنعتني بأنني على المسار الصحيح. كيف كان يمكن أنْ أُصدِّق أنَّ آرثر سوف يأتي إلى هنا ***ويضحك***؟ كيف كان يمكن أنْ أعتبر ذلك الضلال الدالّ بشكلٍ صارخ على جنون العظمة حقيقة؟ كنتُ قد أمضيتُ شهراً وأنا ألعنه –وديبي أيضاً، بسبب تلك التسجيلات البلهاء– ولم يكن لذلك كله أي معنى، لأنّه إنْ كان هناك شخص في العالم ***لا يستطيع*** ببساطة أنْ يفلت زمام الأمور هكذا، فهو آرثر»

«أتريد أنْ تقول إنَّ هذا العميد تخطّى مخاطر الطبيعة الإنسانيّة؟»

«أتعلم؟ إنَّ الجواب على هذا السؤال هو نعم. لقد تخطّى مخاطر الطبيعة الإنسانيّة»

«يا له من مُعالِج داهية»

«الأمر لا يكمن في أنّه داهية ماكر – على العكس. بل في أنّني كنتُ مجنوناً. لا أصدِّق أنني أنا في الواقع الذي لفّقَ هذا كله»

«ورسالته القصيرة، التي أجبتَ عليها بكل كياسة؟ الرسالة التي جعلتْكَ شديد الشحوب؟»

«وأكثر ارتياباً»

«وتسجيل مسرحيّة «***هاملت***»؟»

«آه، ***هذا*** هو السيد واقعيّ. هذا حقيقيّ – وعلى مسار ديبي. آه نعم، أستطيع أنْ أشعر بالفرق بين الشيء الجنونيّ وما يحدث فعلاً. أوه، أنا أشعر بالفرق حقاً، ***يجب أنْ تُصدّقني***. لقد أُصِبتُ بالجنون، لكنني الآن أعلم هذا!»

سأل الدكتور «ما الذي في اعتقادك دفعك، كما قلتَ، إلى «الإصابة بالجنون»؟»

«لا أتذكّر»

«أليست لديك أدنى فكرة؟ ما الذي يمكن أنْ يجذب شخصاً مثلك إلى ذلك الوهم الكامل والكتيم؟»

«أنا أخبرك الحقيقة، يا دكتور. ليست لديّ أدنى فكرة. ليس بعد، على أيّة حال»

«ألا تتذكّر أي شيء؟ أي شيء؟»

«حسن، إنَّ ما يخطر في بالي، مهما كان -ما يخطر في بالي في هذا الصباح-»

«هو ماذا؟»

«أنني أتشبّث بقشّة -وأعلم كم يبدو هذا أمراً غريباً في ظل الظروف الراهنة. لكنني قلتُ في نفسي، «لقد أخذتُ هذه الفكرة من الأدب». من الكتب التي أُدرّسها- هي التي أدخلت الفكرة إلى رأسي. إنني أفكّر في دورتي الدراسيّة عن الأدب الأوروبي. من تدريس غوغول وكافكا في كل عام- من تدريس أقصوصة «الأنف» و«التحوُّل»»

«طبعاً، هناك العديد من أساتذة الأدب في الجامعة يُدرّسون «الأنف» و«التحوُّل»»

قلتُ، وقد تعمّدتُ أنْ أكون فكهاً، «ولكن ربما ليس بكثير من الاقتناع»

ضحكَ.

سألته «مع ذلك، أنا مجنون ***فعلاً*** - ألستُ كذلك؟»

«كلا»

سكّتُّ برهة فقط. أدركتُ أنني عكستُ المعنى الذي قصده بسهولة، وبلا وعي، كما نقلب الصور التي تومض على شبكيّة العين رأساً على عقب.

شرحتُ بهدوء «أريد أنْ أخبركَ أنّه على الرغم من أنكَ لم تُجِب إلّا بكلمة نعم عندما سألتُك عمّا إذا كنتُ مجنوناً، فإنّي سمعتك تقول لا»

«أنا لم أقُلْ لا. أنتَ لستَ مجنوناً. ولا تُعاني من الوهم -أو لم تكن كذلك حتماً، حتى الآن. أنتَ ثدي، بصورة أو بأخرى. كنتَ بطلاً في جهودك التي بذلتَها لكي تتكيَّف مع سوء حظ عاثر. طبعاً يمكن فهم الإغواء: إنَّ هذا كلّه مجرد حلم، هلوسة، وهم- بل حتى حالة ذهنيّة سبّبها المُخدِّر. ولكن، في الحقيقة، هو ليس أي شيءٍ من هذه الأشياء. لقد وقع لك ***فعلاً***. وأفضل طريقة للإصابة بالجنون -هل تسمعني يا سيد كيبيش؟- ***إنَّ الدرب الذي يقود إلى الجنون*** يبدأ بادّعاء غير ذلك. وأؤكّد لك أنَّ الراحة التي تنتج عن ذلك قصيرة الأمد. أريد منك في الحال أنْ تتحرَّر من فكرة أنكَ مجنون. أنت

لستَ مجنوناً، وادّعاؤك بأنكَ مجنون لن يجلب عليك إلّا الحزن. الجنون ليس حلّاً – لا الجنون المُتخيَّل ولا الجنون الحقيقيّ».

«من جديد سمعتُ كل شيء معكوساً. عكستُ الإحساس بكلماتك بالكامل»

«كلا، لم تفعل»

«هل يعني لك أي شيء اعتقادك أنَّ وهمي حفّزته سنونٌ من تدريس تلك القصص؟ أعني، بغضّ النظر عن الأذى الذي أحدثَ الانهيار نفسه»

«ولكن لم يحدث أي أذى، ليس ذا طبيعة نفسيّة؛ وكما سبقَ أنْ قلتُ لك، وها أنا أقوله من جديد، وسوف أستمر في قوله: *هذا ليس وهماً*»

كيف أستمرُّ؟ كيف أخترقُ هذه الحركة العكسيّة؟

قلتُ بدهاء سرّني –وينمّ عن الصحّة! الصحّة!– «ولكنْ إنْ كان الأمرُ كذلك، دكتور كلينغر –بما أنني فهمتُ من جديد أنكَ تقول عكس ما قلت– *إنْ* كان وهماً، فهل سوف ترى حينئذٍ أيّة صِلة بين الهلوسة التي سبّبتُها لنفسي وسيطرتي على تخيّلي لكافكا أو لغوغول؟ أو لسويفت؟ يخطر في بالي كتاب «*رحلات غاليفر*» وهو كتابٌ آخر درّستُه على مدى سنوات عديدة. ربما لو استمررنا في التكلُّم افتراضياً–»

«يكفي، سيد كيبيش. إنك لا تخدعُ إلّا نفسك – حتى إنْ خدعتَ نفسك. لقد كانت هناك صدمة، خوف، غضب، يأس، تشوُّش، مشاعر عميقة بالعجز والعزلة، وأشدّ أنواع الإحباط والخوف، ولكن خلال ذلك كلّه، وبصورة مُعجزة، رائعة، لم تكن هناك أوهام. ولا حتى عندما ظهر صديقك عميد الجامعة مع نوبة ضحكه. طبعاً هذا صدمكَ. طبعاً هذا سحقك. ولِمَ لا يحدث هذا؟ لكنَّكَ لم تتخيَّل سلوك آرثر شونبرون المؤسف. أنتَ لم تختلق ما حدث لك، ولم تلفّق ما حدث له هنا. لم تُضطرّ إلى ذلك. إنكَ تتظاهر بأنكَ ساذج، في الواقع، عندما تُخبرني بأنَّ ردّة الفعل تلك لا يمكن ببساطة أنْ تصدر عن رجل في مركز آرثر شونبرون. أنت طالب أفضل من هذا في مادة الطبيعة الإنسانيّة. لقد أفرطتَ في قراءة دوستويفسكي وأصبحت أفضل»

«هل سيفيد إذا كرّرتُ أمامك ما أعتقد أنني سمعتُك تقول؟»

«لا حاجة إلى هذا. إنَّ ما اعتقدتَ أنكَ سمعته، سمعته. وهذا ما يُسمّى بسلامة العقل. دعك من مسألة الجنون، يا سيد كيبيش -وكلما أسرعتَ في هذا كان أفضل. غوغول، وكافكا وإلى آخره- سوف تتورّط في مشاكل خطيرة إذا استمررتَ فيها. وسرعان ما سوف تتولَّد داخلك أوهام حقيقيّة ولا رجعة فيها تشبه بالضبط تلك التي تدَّعي الآن أنك ترغب في التخلُّص منها. هل تفهمني؟ أعتقد أنكَ تفهمني. أنتَ رجل فائق الذكاء وتتّصِف بإرادة قويّة هائلة، وأريد منكَ أنْ تكفَّ عن هذا فوراً»

كم هو مُرهِق سماع هذا بالعكس! كم هو جنون بارع! اسمع -لن أدع هذا الأمر بعد الآن يجرفني نحو حافة الجنون! سوف أصارع حتى أتحرَّر! سوف أتوقف عن سماع العكس! وسوف أسمع كل ما تقول! *أتفهمني*، يا دكتور؟ أتفهم ما أقول؟ لن أشارك بعد الآن في هذا الوهم! أرفضُ أنْ أُصبح جزءاً منه! سوف تفهم ما أقصد! وسوف أفهم ما تعني! فقط لا تستسلم! «وناشدته» أرجوك، لا تتخلَّ عني وتعتبرني قضيّة خاسرة! سوف أندفع وأعود إلى ذاتي من جديد! أنا مُصمِّم! بكل قِواي- بكل إرادتي على الحياة!

الآن أنا أقضي أيامي في محاولة اختراق الكلمات التي أسمع لكي أصل إلى ما يقول الأطباء حقاً لي، وما تقول كلير، والسيد بروكس. والجهد المطلوب هنا كامل، ومُستنزِف إلى درجة أنني بحلول الليل أشعر بأنَّ إخماد بصيص لهب الذاكرة والذكاء والأمل الخفّاق الذي ما زلتُ أدّعي أنّه أنا إلى الأبد لا يتطلَّب أكثر من نفخة من بين شفتيّ طفل.

عندما جاء والدي لزيارتي في يوم الأحد الخاصّ به، أخبرته بكل شيء، على الرغم من أنني كنتُ متيقّناً من أنّ كلير وكلينغر قد أبلغاه عبر الهاتف في يوم حدوثه. ورحتُ أُبربر كفتى فاز بجائزة. أخبرته بأنَّ الخبر صحيح -لم أعُد أعتقد أنني ثدي. وإذا كنتُ لم أتمكّن بعد من التخلّي عن الإحساس الجسديّ باللاواقعيّة، فإنني كنت أتخلَّص يوميّاً من الوهم النفسيّ المنافي للعقل؛ في كل يوم، في كل ساعة كنتُ أشعر بأنني أعود ببطء إلى ذاتي، بل وأبدأ بالنفاذ إلى الوقت الذي كنت فيه أُدرِّس غوغول وكافكا بدل أنْ أمرّ بالتحوّلات الشاذة التي تخيّلاها في أعمالهما الأدبيّة الشهيرة. وبما أنَّ والدي لم يكن يعرف أيّ شيء عن الكتب، أخبرته كيف استيقظ غريغور سامسا في قصّة

كافكا ليكتشف أنّه تحوّلَ إلى خنفساء ضخمة، ولخّصتُ له قصة «الأنف» بسرد قصّة بطل غوغول الذي استيقظ في صباح ذات يوم ليجد أنّه فقد أنفه، وكيف ينطلق ليبحث عنه في مدينة سينت بيترسبرغ، وينشر إعلانات في الصحف يُطالب فيها بعودته، وتوالى أشخاص بلهاء واحداً إثر آخر ليقولوا إنهم «شاهدوه» يمشي في الشارع، إلى أنْ ظهر الأنف من جديد على وجهه بطريقة لا تقلّ غرابة عن اختفائه. (تخيّلتُ والدي يقول في نفسه «أيُدرّسُ هذه القصّة في الجامعة؟») وشرحتُ له أنني ما زلتُ لا أتذكّر الضربة التي قضَتْ عليّ: في الواقع لقد أصبحتُ أصمّ، *لا أسمع*، عندما حاول الدكتور أنْ يجعلني أواجه المشكلة. ولكن مهما كان حجم الأذى- مهما كان مُرعباً، مُريعاً، ومنفِّراً - فإنَّ ما عرفتُ هو أنَّ درب هروبي كان من خلال وهم جاهز تحولات جسديّة، هو قصّتا كافكا وغوغول الكاريثيّتان اللتان كنتُ أُدرّسهما لطلابي قبل فقط أسبوعٍ من الزمن. والآن، وبمساعدة الدكتور كلينغر، أحاول أنْ أفهم السبب في اختياري الثدي، من دون الأشياء جميعاً. لماذا ذلك الكيس الكبير الخالي من الدماغ من النسيج الأبكم، الشهيّ، المفعول فيه وليس الفاعل، غير المحروس، الثابت في مكانه، المتدلّي، *هناك*، كأي ثدي يتدلّى ببساطة وموجود *هناك*؟ ما سبب هذا التطابق البدائيّ مع شيء ذي مهابة طفوليّة؟ أيّة شهوات غير متحقّقة، أيّة فوضى في المهد، أيّة شذرات من ماضيَّ السحيق كان يمكن أنْ تتصادم وتقدح شرارةَ وهمٍ تتّسِم ببساطة كلاسيكيّة شديدة؟ وواصلت الثرثرة مع والدي، ومن ثم، من جديد، بكيتُ من فرط الفرح. بلا دموع، لكنّي بكيت. أين *ذهَبَتْ* دموعي؟ متى سأشعر بالدموع من جديد؟ متى سأشعر بأسناني، وبلساني، وبأصابع قَدَميّ؟

مرّتْ فترة طويلة لم ينطق والدي خلالها بأيّة كلمة. حسبتُ أنّه هو أيضاً كان يبكي. ثم انتقل إلى استعراض تقرير الأخبار الأسبوعيّة: ابنة فلان الفلاني حامل، وابن فلان العلاني اشترى منزلاً قيمته مائة ألف دولار، وعمّي يُزوّد بالطعام حفل زفاف ابن أخي ريتشارد تكر[1] الأصغر.

إنّه حتى لم يسمعني. طبعاً، كان يمكن أنْ أُعلن **فكرة** كوني ثدياً، ولكن

1- ريتشارد تكر (1913-1975): مُغني أوبرا أميركي. - المترجم

بدا أني في حاجةٍ حقيقيّة إلى إلقاء ذلك كأنّما من على خشبة مسرح، هذا إذا أردتُ أنْ يكون إعلاني مفهوماً. وما اعتقدتُ أنّه نبرة حديث عاديّة اتَّضحَ، بوضوح، أنها أشبه بصوت شخص يُتمتم بشيءٍ في الطرف المقابل من المكان. لكنَّ هذا ليس لأنَّ حنجرتي مدفونة داخل غدّة حيوان ثديي، وزنها مائة وخمسة وخمسون رطلاً. كان جسدي لا يزال جسدي! كان يكفيني أنْ أتوقف عن الهمس! كان يكفي أنْ أتكلَّم بصوتٍ مُرتفع! أيمكن أنْ يكون ذلك جزءاً من الجنون؟ أم إنني عندما اعتقدتُ أنني أتكلَّم بصوتٍ مُرتفع، كنتُ فقط أتكلَّم مع نفسي؟ إذن تكلَّم بصوتٍ مرتفع يا هذا!

وفعلتُ ذلك. رحتُ أُكرِّر بأعلى صوت يمكن أنْ يصدر عن رئتيّ (رئتيّ القويتين!) على مسمع والدي قصّة تحوّلي المُفاجئ.

ومن ثم حان الوقت لاتّخاذ الخطوة التالية. خطوة إلى الأمام. قلت «أبي، أين نحن؟ أخبرني أنت»

أجاب «نحن في غرفتك»

«وأخبرني، هل تحوّلتُ إلى ثدي؟»

«في الواقع، هذا ما يقولون»

«لكنَّ هذا ليس صحيحاً. أنا مريض في عقلي. والآن أخبرني من جديد – ماذا أنا؟»



«أوه، ديفي»

«*ماذا أنا؟* »



«أنت ثدي امرأة»

«هذا غير صحيح! ما سمعتكَ تقول ليس صحيحاً! أنا مريض في عقلي! وفي المستشفى! وأنتَ تعودني! أبي، إنْ كانت هذه هي الحقيقة، أريد منكَ فقط أنْ تقول نعم. أصغِ إليّ الآن. يجب أنْ تساعدني. أنا مريض في عقلي. أنا في مستشفى الأمراض العقليّة. وقد أُصِبتُ بانهيار عقليّ. نعم أم لا. *أخبرني الحقيقة*»

فأجاب والدي، «نعم، يا بنيّ، نعم. أنت مريض في عقلك»

صرختُ في وجه كلينغر عندما جاء في وقتٍ لاحق من النهار– «لقد

سمعته! سمعتُ والدي! سمعتُ الحقيقة! سمعته يقول إنني مريض في عقلي!»

«ما كان ينبغي أنْ يقول لك هذا»

«لقد سمعتُ! وأنا لا أتوهَّم! ولم أسمعه بالعكس!»

«طبعاً سمعتَ. إنَّ والدك رجل بسيط وهو يُحبّك حبّاً جمّاً، وقد رأى أنّه يُساعدك إذا قال هذا. إنّه يعلم الآن أنّه أمر مستحيل. وأنت أيضاً تعلم»

لكنَّ سعادتي كانت غامرة. لقد فهمني والدي. ويمكن فهمي! وقريباً سوف يفهمني الآخرون. قلت «لقد سمعتُ ما قال! أنا لستُ ثدياً! أنا مجنون!»

كم اجتهدتُ في الأيام التالية لكي أعود من جديد إلى ذاتي العاقلة! كم عبثتُ بقذارة بداياتي، بحثاً عمّا سيفسّر -وبالتالي يمحو- هذا الوهم المُنافي للعقل! وأقول للطبيب، لقد رجعتُ إلى فجر حياتي، إلى الساعات الألف الأولى بعد ساعات لا حصر لها من العدم -عندما لا يكون المرء إلّا ذاته، عندما يكون الشكل المقعَّر هو الشكل المُحدّب والمُحدَّب هو المُقعَّر... أوه، كم أتكلَّم! كم أعمل على التفوّق على دهاء جنوني! ليتني فقط أتذكَّر لثّتي النهمة عند سدّادة الحب، وأنفي في الكرة المُغذّية-! «أوه، ليتها كانت حيّة، ليت في استطاعتها أنْ تُخبرني-»، سأل كلينغر، «نعم؟ تُخبرك بمَ؟»، أتأوَّه، «أوه، كيف لي *أنا* أنْ أعرف؟». ولكن من أي مكان آخر غير هناك أبدأ؟ ولكنْ هناك لا يوجد أي شيء. إنّه مكان **سحيق** في القِدَم، حيث كنتُ. ما أجمل أنْ أغوص في قاع ذلك البحر حيثُ بدأتُ - أنْ أعثر على هذا السر وسط القذارة! ولكن عندما أظهر على السطح، لا أُمسك بين أصابعي بأي شيء، أكون خالي الوفاض.

أقول، ربما، ربما هو مجرد انهيار ما بعد التحليل، بعد عام من العمل -الوسيلة المُلحّة التي استطعتُ أنْ أبتكرها لأتشبّث بكلينغر. هل فكرتَ مرّة في أوهام الاتّكال التي تنمو في مرضاك فقط على أساس اسمك؟ هل أدركتَ، يا دكتور، أنَّ أسماءنا كلّها تبدأ بحرف «كاف»، اسمك واسمي واسم كافكا؟ ثم اسم كلير- والمس كلارك!»، فيُذكّرني، أنا أستاذ اللغة،

«إنَّ الأحرف الأبجديّة لا تضمّ أكثر من ستٍ وثلاثين حرفاً. ونحن أربعة مليارات نحتاج إلى أحرف أوّليّة من أجل التعريف بنا»، «ولكنْ!»، «ولكن ماذا؟»، «ولكن *شيئاً ما*! لكنَّ *أي شيء*! أرجوك، أريد مفتاحاً! إذا لم أستطع أنا -تستطيع *أنت*. أرجوك، مفتاح ما، دليل ما- يجب أنْ أخرج!»

من جديد أستعرضُ معه اللحظات البارزة في تطور حالتي النفسيّة، ومن جديد أُقلِّبُ صفحات منتخبات القصص التي جمعناها نحن الاثنين لتكون مُقرّراً مدرسيّاً من أجل تدريسها في الدورة التي أدرناها، ثلاث مرّات في الأسبوع على امتداد خمسة أعوام، أُقلِّبُ كتاب «تاريخ حياة ديفيد ألن كيبيش». لكنَّ تلك القصص في الحقيقة أعدتُ سردها وشرحها مرّات عديدة مُرهِقة حتى بتُّ أجدها تافهة على غرار النكتة الأدبيّة المُفضّلة التافهة بالنسبة إلى أشدّ أساتذة المدارس رجعيّة في أميركا. إنَّ دراما حياتي، التي كانت مُثيرة خلال سنوات العلاج المُبكِّرة على غرار رواية «***الأخوة كارامازوف***»، أصبح لها الآن كل جاذبيّة بعض قصص الصف العاشر بدءاً بقصة «القِلادة»[1] مروراً بـ«حظ المعسكر الهادر»[2]. وهذا يُفسِّر النهاية الناجحة لتحليل العام السابق.

قلتُ في نفسي، وهناك يكمن مُصابي! في النجاح نفسه! هذا ما لم أتمكّن من تقبّله - حياةً سعيدة! سأل الدكتور كلينغر مُستفسراً، «ما هو؟ ما الذي لا تستطيع تقبّله؟»، «الجوائز -بدل العقاب! كل شيء! الراحة! والمتعة! وأسلوب حياة مُرضٍ، حياة **من دون**-»، «انتظر لحظة، من فضلك. لِمَ لم تستطع أنْ تتقبّل تلك الأشياء؟ إنَّ تلك الأشياء رائعة. دعكَ من هذا، سيد كيبيش. وحسب ما أتذكَّر في استطاعتك أنْ تتقبّل السعادة بهذه الأشياء.» لكنني رفضتُ أنْ أُصغي، بما أنَّ ما سمعته يقوله ليس ما كان يقوله في كل الأحوال. هذا بالضبط هو مرضي، إنّه عكسُ الأشياءِ لكي تبقيني مجنوناً. وبدل ذلك أتابع، أتكلّم بعدئذٍ عمّا سيتحدث عنه المرضى عاجلاً أو آجلاً - ذلك الصديق الوهمي الذي يُسمّونه السيد ذنب. أتكلَّم عن هيلين، زوجتي

---

1- «القلادة»: قصة قصيرة للكاتب الفرنسي غي دو موباسان. - المترجم

2- قصة قصيرة للكاتب الأميركي بريت هارت. - المترجم

السابقة، التي قيل لي إنَّ حياتها لم تعُد الآن أفضل مما كانت عليه عندما عانينا معاً طوال خمسة أعوام من الزواج. أتذكَّر أنّه لم يسعني إلّا أنْ أستغرق قليلاً في التفكير عندما سمعتُ عن تعاسة هيلين مع صديق سان فرانسيسكو السابق، الذي كان قد جاء على العشاء معي ومع كلير الظريفة، والهادئة. قلت في نفسي، محظوظة تلك العاهرة... سألَ كلينغر بمرح، «والآن، أنت تعتقد أنكَ بهذه الطريقة تعاقب نفسك على هذا الخبث اليوميّ، العادي؟»، «أنا أقول إنَّني لا أتحمّل حياتي الجديدة السعيدة! إنها سبب فقداني رغبتي في كلير -كانت جيدة أكثر مما ينبغي ولا يمكن أنْ تدوم! وفرط الرضا بدا- بدا شيئاً جائراً! وإذا ما قورنَتْ بمصير هيلين، تبدو جائرة نوعاً ما!»، ناشدته، «إنَّه إحساسي بالذنب!»، أجاب، «يا سيدي العزيز، إنَّ هذا التحليل لا قيمة له - أنت تعلم هذا بقدر علمي به»، «وإذا كان الأمر ليس كذلك، *فماذا*؟ ساعدني! ساعدني! *ما سببه*؟»

«لا شيء سبّبه»

«*إذن لِمَ أنا مجنون بحقّ الله*؟»

«لكنكَ لستَ كذلك. وأنت تعلم هذا أيضاً»

في يوم الأحد التالي، عندما جاء والدي ليعودني، سألته من جديد إنْ كنتُ مريضاً في عقلي -أردتُ فقط أنْ أتيقّن- وهذه المرّة أجاب «كلا»

«*ولكن في الأسبوع الفائت قلتَ نعم!*»

«كنتُ مُخطئاً»

«*لكنّها الحقيقة!*»

«ليست كذلك»

«إنني أقول العكس من جديد! لقد أضعتها الآن معك! لقد عدتُ إلى حيث كنتُ! إنني أقلِبُ الأمور مع كل شخص!»

قال الدكتور كلينغر «لستَ كذلك البتّة»

«ماذا تفعل هنا؟ اليوم الأحد! والدي يحضر إلى هنا، وليس أنت! بل إنك لستَ موجوداً هنا!»

«أنا هنا. مع والدك. نقفُ إلى جوارك مباشرة، نحن الاثنين»

«هذا الأمر يُصبح جنونيّاً من جديد! لا أريد أنْ أُصبح مجنوناً من جديد! ساعدني! أتسمعني؟ هل هناك مَنْ يسمعني؟ ساعدني، أرجوك! أحتاج إلى مُساعدتك! لا أستطيع أنْ أفعل هذا وحدي! ساعدني! ارفعني! لا تخبرني إلّا الحقيقة! إنْ كنتُ ثدياً، فأين حليبي! وإذا كانت كلير تمصّني، فأين الحليب! أجِب عن *هذا السؤال*!»

«أوه، ديفيد»، والدي كان المتكلِّم، ووجنته غير الحليقة على الحلقة المحيطة بحلمتي. «بُنيّ، بُنيّ المسكين»

«أوه، أبي، ماذا حدث؟ ضُمّني، يا أبي، أرجوك. ما الذي حدثَ حقاً؟ أخبرني، أرجوك، *لِمَ أُصِبتُ بالجنون*؟»

أجهشَ بالبكاء. «لم تُصَبْ، يا عزيزي»

«*إذن أين حليبي؟ أجبني! لو كنتُ ثدياً لأفرزتُ حليباً! لاحتويت حليباً! لانتفختُ بالحليب! وهذا أمر جنونيّ إلى أقصى مدى بالنسبة لأي شخص ولا يمكن تصديقه! حتى أنا!* **وهذا بكل بساطة مستحيل!**»

ولكن من الواضح أنّه ليس مستحيلاً. فكما أنّه في المُستطاع زيادة مقدار الحليب الذي تُعطيه الأبقار بحقنها بهورمون النمو اللبنيّ GH، افترِضَ أنَّ من المُحتَمَل كثيراً أنْ أُصبح غدّة حيوان ثديي مُنتِجة للحليب ومُحفّزة مناسبة للهورمون. إنْ كان الأمر كذلك، فيجب أنْ يكون هناك في العالَم العِلميّ أولئك الذين ينتهزون الفرصة لاكتشاف هذا الأمر. وعندما أكتفي من هذا كلّه، فقد أُعطيه لهم. وإذا لم أُقتَل في أثناء العمليّة؟ إذا نجحوا وبدأ الحليب يتدفّق؟ حسن، سوف أعلم أنني في الحقيقة ثديٌ أصيل بكل معنى الكلمة - أو أنني مجنون كأي مجنون آخر.

في تلك الأثناء مرَّ خمسة عشر شهراً -حسب تقويمهم- وحالياً أعيش بهدوءٍ نسبيّ. بمعنى، كانت الأحوال أسوأ وسوف تبقى كذلك، أمّا الآن، الآن ما زالتْ كلير تقوم بزيارتي في كل يوم، ولمْ تفوّتْ يوماً واحداً، وما زالت تعمل، على مدى نصف الساعة الأول من كل ساعة، على تسليتي،

بلا شكوى، وبلا اعتراض. مُحوّلة الانحراف المُثير للاشمئزاز إلى عمل حب رقيق وعاقل. ومن ثم نتحدث، وتساعدني في دراساتي حول شكسبير. كنتُ أستمع حتى وقتٍ متأخّر إلى تسجيلات للمسرحيات المأساويّة. بدأتُ بمنحة شونبرون لتسجيل إلقاء أوليفييه بصوته لمسرحيّة «*هاملت*». ظلَّ الألبوم موضوعاً طوال أشهر هنا في الغرفة قبل أنْ أطلب من السيد بروكس في صباح أحد الأيام أن يُزيل غلاف السوليفان ويضع الأسطوانة على المُشغِّل. (يتّضحُ أنَّ السيد بروكس زنجيّ؛ وهكذا أتخيّله في عين عقلي -عين عقل ثدي، طبعاً- عضواً أسود وسيماً في مجلس الشيوخ من ماساتشوستس. ولِمَ لا، إنْ كان هذا مُناسباً أكثر بالنسبة إليّ؟) وكالعديد من الناس، منذ أنْ كنتُ في الجامعة صبوتُ إلى أنْ أجلس ذات يوم وأقرأ من جديد مؤلفات شكسبير. وربما قلتُ هذا ذات يوم لديبي شونبرون، واشترتْ هي أسطوانة التسجيل لأنها أدركت أنَّ الوقت قد توفَّر لديّ الآن. لا شك في أنّه لا يُقصَد بهذا أيّة سُخرية، ومع ذلك ربما اعتقدتُ خِلاف هذا عندما وصل تسجيل مسرحيّة «*هاملت*» في الأسبوع الذي تلا زيارة آرثر التي دامتْ ثلاث دقائق. يجب أنْ أتذكَّر أنّه بغضّ النظر عن المصاعب الأكثر وضوحاً التي سبّبها تحوّلي، لم أعُد الشخص الأسهل في العالم الذي يمكن شراء هدية له.

على مدى عدّة ساعات في صباح كل يوم وأيضاً في وقت لاحق بعد الظهيرة حين لا يكون هناك ما يمكن عمله، أستمع إلى تسجيلات أعمال شكسبير: إلى أوليفييه يمثّل دور هاملت وعُطيل، ويقوم بول سكوفيلد بدور الملك لير، ومسرحيّة «*ماكبث*» كما تؤديها فرقة أولد فيك. وبما أنّي أعجز عن متابعة تمثيل المسرحيّة صوتيّاً بالتطابُق مع النص المكتوب، فإني دائماً أخطئ في فهم معنى كلمة غير مألوفة، أو أُضلّ طريقي في الإعراب المُعقَّد، ومن ثم يبدأ عقلي بالتساؤل، وعندما أستمع من جديد، لا أفهم أيّ شيء على مدى أسطر لا حصر لها. وعلى الرغم من الجهد الذي أبذله -أوه، الجهد، ذلك الجهد الحثيث!- من أجل إبقاء انتباهي مُركَّزاً على مُعاناة أبطال مسرحيات شكسبير، أستمرّ في اعتبار أنَّ مُعاناتي الخاصّة لا تُطاق.

طبعة أعمال شكسبير التي استعنتُ بها في الجامعة -نيلسون وهيل،

*المسرحيات والقصائد الكاملة لوليم شكسبير*، المُلبَّسة ببطانة زرقاء، التي تهرَّأتْ عند محور الكتاب بقبضة يديّ الرصينة لطالب مُقبل على التخرّج والمُثقلة بالخطوط التي وضعتُها تحت الكلمات حينئذٍ لمعرفتها- موضوعة على الطاولة المُجاورة للأرجوحة. إنّه أحد الكتب العديدة التي طلبتُ من كلير إحضارها من شقّتي. وأتذكّر بالضبط شكله، وهذا أحد أسباب رغبتي في وجوده هنا. وفي الأمسيات، خلال نصف الساعة الثاني من فترة زيارتها، تقوم كلير بالبحث بين التعقيبات السفليّة بالنيابة عني عن الكلمات التي تعلّمتها قبل زمن بعيد ونسيتها؛ أو ستقرأ ببطء وبصوت مرتفع فِقرةً فاتتني قراءتها في صباح ذلك اليوم عندما غادر ذهني قلعة إلسينور متوجهاً إلى مستشفى لينكس هيل. ويبدو لي أمراً هاماً استحضار هذه الفِقرات بوضوح في ذهني -في عقلي- قبل النوم. وإلّا فقد يبدو أنَّني أستمع لمسرحيّة «*هاملت*» للسبب نفسه الذي دفع والدي إلى القيام بالردّ على المكالمات الهاتفيّة في مؤسسة عمي لاري التي توفّر وجبات الطعام للمؤسسات - لتبديد الوقت.

إنَّ أوليفييه رجل عظيم، كما تعلم. وقد وقعت في حبّه قليلاً، كما تقع تلميذة في حب نجم سينمائيّ. ولم يحدث من قبل أنْ استسلمت لعبقريّ استسلاماً كاملاً هكذا، ولا حتى في أثناء القراءة. وعندما كنتُ طالباً، ومن ثم أستاذاً جامعيّاً، نظرتُ إلى الأدب كشيءٍ مُرتبطٍ بصورة حتميّة بوعيي بذاتي وبكل مسؤوليات الخطاب الجادّ؛ كنتُ إمّا أتعلَّم أو أُعلِّم. لكنَّ المسؤوليات كانت حينئذٍ قد أضحت خلفي؛ أصبحَ في استطاعتي على الأقلّ أنْ أكتفي بالإصغاء.

في البدء كنتُ أحاول أنْ أتسلّى وأنا وحدي في الأمسيات بُمحاكاة أوليفييه. وفي النهار كنتُ أعمل على تسجيلاتي باستذكار مقطوعات من مُناجاة النفس الشهيرة، ومن ثم أؤديها بيني وبين نفسي ليلاً، مُحاولاً أنْ أقترب من إلقائه المُتميِّز. وبعد مرور بضعة أسابيع بدا لي أنني في الحقيقة أصبحتُ بارعاً في أداء دور عُطيل الذي أدّاه، وذات ليلة، بعد مُغادرة كلير، قمتُ بأداء خطاب مشهد الموت بشغف حزين حتى إنني اعتقدتُ أنَّ في استطاعتي أنْ أُثير مشاعر الجمهور إلى درجة ذرف الدموع. إلى أنْ أدركتُ أنَّ لديّ جمهوراً.

كان ذلك في منتصف الليل، أو نحوه، ولكن لا أحد كان قد منحني بعد سبباً وجيهاً لجعل آلة التصوير التلفزيونيّ تكفّ عن العمل في أيّة ساعة من النهار أو الليل – وهكذا تخلّيتُ عن أدائي. كفى حزناً، أو في العموم، هذا كثير جداً. وقلت لنفسي، «كفى ديفيد – إنَّ كل ما تفعل مُحزِن جداً ويُحطِّم القلوب، إنّه إلقاء جدير بثدي، «وقُلْ إلى جانب ذلك، إنّه في مدينة حلب ذات يوم...» [1] سوف تجعل المُناوب في الليل يعود إلى منزله وهو يبكي». نعم، إنها مرارة، أيّها القارئ العزيز، ومن النوع الضحل، ولكن هلّا سمحتَ لكرامتي المُحترفة المسكينة أنْ تأخذ قسطاً من الراحة؟ أصبح الأمر أقرب إلى المهزلة منه إلى المأساة. إنها مجرد حياة، وأنا لستُ أكثر من بشر.

هل هذا ما *فعله* الأدب بي؟ سأل الدكتور كلينغر «كيف يمكن أنْ يفعل هذا؟ كلا، الهورمونات هي هورمونات والفن هو فن. أنت لا تعاني من جرعة زائدة من الأوهام الكبرى»، وأتساءل «ألستُ كذلك؟». يمكن لهذا أنْ يكون أسلوبي في التصرّف على غرار كافكا أو غوغول، أو سويفت. كان في استطاعتهم أنْ يتخيّلوا ما لا يُصدَّق، كانت في حوزتهم الكلمات المناسِبة ويمتلكون تلك العقول الأدبيّة الصارمة. أما أنا فلا أملك أياً منها، ليس لديّ أي شيء –ليست لديّ غير الأشواق الأدبيّة. أحببتُ التطرّف في الأدب، وبجّلتُ أولئك الذين كتبوه، بل في الواقع كنت أُفتَن بالمُخيّلة والطاقة– «وماذا بعد؟ نعم؟ العالم مملوء بعشّاق الفنّ –ثم ماذا؟»، «ثم قمتُ بالقفزة. جسّدتُ الكلمة. ألا ترى، لقد تفوقتُ على كافكا في أسلوبه». ضحك كلينغر، كأنَّ قصدي الوحيد هو التسلية. قلت «قبل أي شيء، من هو أعظم الفنانين، أهو الذي يتخيّل أروع التحولات، أم الذي يتحوّل هو نفسه؟ لِمَ ديفيد كيبيش؟ لِمَ أنا، من دون الناس جميعاً، لِمَ أمتلك قِوى هائلة؟ الأمر بسيط. لِمَ كافكا؟ لِمَ غوغول؟ لِمَ سويفت؟ لِمَ أيّ شخص؟ إنَّ الفن العظيم يحدث للناس كما يحدث أي شيء آخر. وهذا هو فنّي العظيم!»، لكنني أسرعتُ وأضفتُ، «أه، يجب أنْ أُحافِظ على صحّة عقلي ووجهة نظري العقلانيّة. لا أريد أنْ أُزعجك من جديد. لا أوهام– وخاصّة أوهام العَظَمَة»

---

1- وقُلْ إلى جانب ذلك...»، سطر من مسرحيّة «*عُطيل*» لوليم شكسبير. – المترجم

ولكن إذا لم تكن العَظَمَة، ماذا عن الضِعة؟ ماذا عن الفسق والإثم. كان يمكن أنْ أصبح ثريّاً، لعلمك، كان يمكن أنْ أُصبح ثريّاً، وذا سمعة شائنة، وفي حالة غامرة من السرور في كل ساعة من ساعات النهار. إنني أفكر في الأمر باطّراد. يمكنني أُنْ أدعو صديقي إلى زيارتي، الزميل المُغامر الأصغر سنّاً الذي أتيتُ على ذِكره في وقتٍ سابق. وإذا كنتُ لم أجرؤ على دعوته بعد، فذلك ليس لأنني خشيتُ أنْ يضحك ويفرّ هارباً كما فعل آرثر شونبرون، بل لأنه سوف يرى ما أصبحتُ عليه -وما يمكن أنْ أؤول إليه- ويُبدي رغبةً جامحة في مُساعدتي؛ وأنني عندما أخبره أنّني اكتفيتُ من كوني شخصاً متحضّراً بصورة بطوليّة في التعامل مع الأمر كلّه، ومن الاستماع إلى أوليفييه والتحدث مع طبيبي المُحلِّل النفسي والاستمتاع طوال ثلاثين دقيقة في كل يوم بفكرة أستاذ مدرسة فاضل عن الجنس الحارّ، فلن يُجادلني، كما يفعل الباقون. وأقول له «أريد أنْ أغادر هذا المكان وأحتاج إلى شريك. نستطيع أنْ نحمل معنا كل المضخات والأنابيب التي تدعمني. ونستطيع أنْ نستأجر أطباء وممرضات لكي يأتوا ويعتنوا بصحتي كما هي -والنقود ليست مشكلة. لكنني سئمتُ القلق بشأن فقدان كلير. فلترحل وتبحث عن عشيق جديد لا تبتلع نُطفه، وتعيش معه حياة طبيعيّة وخصبة. لقد سئمتُ الحذر من فقدان طيبتها الملائكيّة. وبيني وبينك، سئمتُ أيضاً قليلاً أبي العجوز- إنّه يبعثُ فيّ الضجر. ثم، صِدقاً، كم في اعتقادك أستطيعُ أنْ أتحمّلَ من مؤلفات شكسبير؟ أتساءل إنْ كنتَ تُدرك كم مسرحيّة عظيمة من الأدب الغربي تتوفَّر الآن مُسجّلة على أسطوانات كبيرة ممتازة. وبعد أنْ أنتهي من أعمال شكسبير، أستطيع أنْ أنتقل إلى الأداء الممتاز لمسرحيات سوفوكليس، وشيريدان، وأريستوفان، وشو، وراسين -ولكن ما الهدف؟ ما الهدف! هذا **هو** ما يُسمّى بقتل الوقت. وبالنسبة إلى ثدي هو ***اغتيالٌ*** لعينٌ للوقت. يا صاحبي، سوف أجمع الكثير من المال. ولا أعتقد أنَّ هذا أمرٌ صعب. إنْ كان في استطاعة فريق البيتلز أنْ يملأ ملعب شيا، فلِمَ لا أستطيع أنا؟ سوف نُضطرّ إلى التفكير في هذا- أنتَ وأنا، ولكن ماذا كان الهدف من تلك الثقافة كلّها، إذا لم يكن تعلُّم تقليب التفكير في الأشياء؟ وقراءة المزيد من الكتب؟ وكتابة المزيد من المقالات النقديّة؟ المزيد من التأمُّل

في الأشياء الأرقى؟ وماذا عن بعض التأمُّل في الأشياء الأدنى؟ سوف أجمع مئات الآلاف من الدولارات - ومن ثم سوف أحصل على فتيات، فتيات بعمر الثانية عشرة والثالثة عشرة، ثلاث فتيات، وأربع، وخمس في كل مرّة، عاريات وضاحكات، وكّلهن ينهلن على حلمتي دفعة واحدة. أرغبُ فيهن على امتداد أيام متواصلة، فتيات صغيرات شريرات ونهمات، يلعقنني ويمتصنني حتى أرتوي. وأنتَ تعلم أنَّ في استطاعتنا أنْ نعثر عليهن. إذا كان في استطاعة أعضاء فريق الرولينغ ستون أنْ يعثروا عليهن، وإذا كان في استطاعة تشارلز مانسون، ربما نستطيع نحن أنفسنا وبمعيّة ثقافتنا كلها أنْ نعثر على بعض منهن. على نساء ناضجات. سوف تكون هناك أيضاً نساء يشتقنَ إلى فتح أفخاذهن لاستقبال قضيب جديد ومُثير كحلمتي. وأعتقد أننا سوف نُدهش بسعادة بعدد النساء المحترمات اللواتي سيأتين ويقرعن على باب غرفة تغيير الملابس مرتديات فرو فئران الشنشيلا المحترم فقط لكي يُلقين نظرة سريعة على لحمي الناعم ذي اللون الخفيف. حسن، سوف نُضطرّ إلى معاناة التمييز، أليس كذلك، وسوف ننتقي من بينهنّ وِفقاً لدرجة الجمال، والأصل الطيب، وشبق الشهوة. وسوف أكون في ذروة السعادة. سوف أكون في ذروة السعادة. هل تتذكَّر غاليفر بين شعب العمالقة؟ وكيف جعلته الخادمات يتمشّى على حلمات أثدائهن من باب التسلية؟ ذلك الرجل القزم المسكين لم يرَ في الأمر تسلية. لكنّه كان طبيباً إنكليزيّاً عطوفاً، ابن عصر العقل، ومُناصِراً مُخلِصاً للحسّ بالأبعاد حبيساً في قارةٍ من العمالقة الهمجيين؛ لكنَّ هذه، يا صديقي وشريكي، أرض الفُرَص المُناسِبة، وهذا عصر تحقيق الذات، وأنا الثدي، وسوف أعيش وِفق فلسفتي الخاصّة!»

«تعيش وِفقها أم تموت بها؟»

«إنه يبقى لكي يُشاهَد، يا دكتور كلينغر»

اسمح لي الآن أنْ أختم مُحاضرتي بمُقتَطَف من الشاعر ريلكه. وبوصفي أستاذاً متحمّساً وحسن النيّة لمادة الأدب لطالما كنتُ شغوفاً بإنهاء درسي بشيءٍ مُؤثّر لكي يحمله الطلاب معهم من غرفة الدرس النقيّة إلى العالم الغارق في الوجبات السريعة ونجوم موسيقى البوب والمخدرات. صحيح أنَّ وظيفة كيبيش انتهتْ -مسرحيّة *عُطيل*، الفصل الثالث، المشهد الثالث-

لكنّني لم أخسر بالكامل نوايا أستاذ المدرسة الطيبة. ربما حتى لم أخسر طلابي. وعلى أساس شهرتي، لعلّي حتى اكتسبتُ قطعاناً غفيرة جديدة من الأغنام المُقبلة على التخرُّج، البريئة من الكارثة كما من الشِعر. بل قد أكون أنا نفسي نجم موسيقى بوب وأتّصِف بكل ما يلزم لكي أُقرِّب الشِعر العظيم من الناس.

(يقول الدكتور كلينغر، «شهرتك؟»، أقول «لا شك في أنَّ العالم بات الآن يعرفها، ما عدا ربما الروس والصينيين»، «تماشياً مع رغباتك تمّ التعامُل مع قضيتك بأقصى كتمان»، «لكنَّ أصدقائي يعلمون. وطاقم العمل هنا يعلم. وهذا يكفي كبداية لشيءٍ كهذا»، «هذا صحيح. ولكن حالما تتسرَّب الأنباء وتتجاوز الذين يعلمون وتصل إلى إنسان الشارع، يميل في العموم إلى عدم التصديق»، «سوف يعتقد أنها نكتة»، «هذا إنْ استطاع أنْ يطرح مشاكله جانباً فترة كافية بحيث يفكِّر في أي شيء آخر»، «وماذا عن وسائل الإعلام؟ أتُلمِّح إلى أنها لم تفعل أي شيء بهذا الشأن أيضاً؟»، «لا شيء على الإطلاق»، «لا أقبل هذا، يا دكتور كلينغر»، «لا تفعل. لن أجادلك. قلتُ هذا لك قبل وقت طويل – وقد جرت تحقيقات في البداية. ولكن لا أحد قدَّم أيّة مساعدة لأحد، وبعد فترة وجيزة سوف يضطر هؤلاء الناس إلى كسب قوتهم كأي شخص آخر، ويُتابعون حياتهم إلى سوء حظ موعود آخر»، «إذن لا أحد يعلم كل ما يحدث»، «كل ما يحدث؟ لا أحد غيرك يعرف كل ما يحدث، سيد كيبيش»، «حسن، إذن ربما يجب أنْ أكون الشخص الذي يجب أنْ يُخبِر كل شيء»، «إذن سوف تُصبح مشهوراً، أليس كذلك؟»، «إنَّ الحقيقة أفضل من أوهام الإشاعات. والأفضل أنْ تصدر عني بدل أنْ تصدر عن المجانين الثرثارين والبلهاء»، «طبعاً المجانين والبلهاء سوف يُثرثرون في كل الأحوال، كما تعلم. أنت تدرك أنهم لن يقبلوك بشروطك، بغضّ النظر عمّا تقول»، «وسوف أبقى بمنزلة نكتة»، «نكتة. مخلوق شاذّ. وإذا أصررَتَ على أنْ تكون الشخص الذي يُخبرهم، فأنتَ أيضاً دجّال»، «أنتَ تنصحني بالنأي بنفسي بعيداً. تنصحني بالاحتفاظ بهذا كله لنفسي»، «أنا لا أنصحك بأي شيء، بل فقط أُذكِّركَ بصديقنا ذي اللحية الجالس على العرش»، «السيد واقع»، يقول كلينغر «وبمبدئه»)

والآن أختمُ الدرس بقصيدة للشاعر راينر ماريا ريلكه عنوانها «جذع أبوللو العتيق» التي كتبها في باريس في عام 1908. إنَّ قصّتي تُحكى هنا بأكملها للمرة الأولى، وبكل ما أتَّصِف به من صِدق، سوف تقوم على الأقلّ بتسليط الضوء على تلك الأبيات العظيمة من أجلكم أنتم الجُدُد على القصيدة -خاصة نصيحة الشاعر الختاميّة، التي قد لا تنطوي على عاطفة رفيعة كما يبدو من النظرة الأولى. إنَّ البلهاء والمجانين، الصلبين والمُشكّكين، الأصدقاء، والطلاب، والأقارب، وزملاء العمل، وأنتم أيّها الغرباء المذهولون، بمليارات بصمات أصابعكم ووجوهكم المختلفة- أقراني من الثدييات، دعونا نستمر في ثقافتنا، كلّنا معاً.

لم نعرف رأسه الأسطوريّ،
الذي نضجتْ فيه مُقلتا عينيه. لكنّ
جذعه ما زال يتوهّج كالثُريّا
الذي فقط خفَتَ فيه ضوء تحديقه،

ثابتاً وبرّاقاً. وإلّا لما بَهَرَكَ منحنى
الثدي، ولا انتشرت ابتسامة على المنعطف القصير
للعورة حتى ذلك الجزء الأوسط، الذي يقع فيه الإنجاب.

وإلّا لنهضَ هذا الحجر مجدوعاً
وقصيراً تحت تهدُّل الكتفَين
لا يومض كتهدّل ثديي حيوان مفترس

أو يتجاوز منحنياته كلها
كنجم: لأنه ليس هناك مكان
لا يراك. يجب أنْ تغيِّر حياتك.




**انتهى**